المثال القومي

☆



حقيقتنا اليومية التي تطل وتطالع بوجه من القلق المخيف، وتتلفف بأثواب من الحيرة البالغة، ترجع في واقعيتها الى :

تخلف الزعماء كيانياً وثقافياً وانسجاماً مع نزعة العصر، فان العصر الحاضر — ككل العصور — له طابع خاص وروحية خاصة يختلف بهما عن العصور الاخرى. والزعيم المنحدر من عصر آخر، ان تأتى له ان يتعرف الى الطابع العصري الداخل في حدود الشكليات، فانه لا يحس ابداً بروحيته المسيرة التي هي هبة الوقت، فيظل لذلك بعيداً عما يجيش في المجتمع من تيارات تحدد خطة الاصلاح وتسوي وجهتها .

وطبقتك — ايها الشعب — هي الطبقة الشاعرة التي تستجيش بالاماني والآمال الجسام، وهي الطبقة المتطلعة التي ترنو دائماً الى فوق وتنظر بنهم الى الافق تبحث عن مقعد لك فيه، وتحس بآلامك وآمالك، وتتحرك لك وتحمل رسالتك المقدسة لتؤديها بامانة واخلاص .. ولاجل ان تكون — ايها الشعب — اشد اقتناعاً، سنحلل لك طبقتك على ضوء علم النفس والغرائز لتكون اكثر وعياً فلا يظلمونك، واكثر وثوقاً فلا يضعف اعتقادك بنفسك .

اهتم نقاد الاجتماع القومي بدرس المزاج العقلي او الروحي درساً مقارناً بين الامم، فوجدوا انه دعامة التطور الاجتماعي الحق والنشوء المقدر الموزون . ولذلك انعطفوا يبحثون في طبقات كل امة ليجدوا في اية طبقة يكون اكثر وفوراً، فكان في الطبقة المتوسطة، لانها اقل عرضة للدخيل واكثر مرونة في الخصائص . فحصر هؤلاء النقاد نظرهم في الطبقة المتوسطة، وتكون لديهم ما اسموه بالمثال الوسط، الذي جعلوه عنوان الامة المتكونة الحافلة بكافة الاستعدادات والقابليات . ان عمل « ريشيليو » الاول كان في تنمية هذا المثال للفرنسيين، وان عمل « بسمرك » البارز ليس في ايجاد الوحدة السياسية للالمان، بل بالكشف عن هذا المثال القومي، وهكذا الحال في كل امة نهضت وتنهض ابداً .

ومن هذا نفهم، ان التقسيم الثلاثي لطبقات الامة قائم على اساس خاطيء، وهو الثروة، والاساس الصحيح له هو الوراثة التاريخية « اي الحنين العميق الى الارض »، ولو كانت الفواصل الطبقية هي الثروة لما كان الوطن وطناً بالمعنى المفهوم من هذا اللفظ، الذي يضم وحدة الافكار والمشاعر والرغبات وما الى ذلك . بل يعود الوطن شركة تجارية مساهمة، ومالكو اكثرية الاسهم يؤلفون الطبقة العليا وهكذا من دونهم . ان الثروة شيء والوطنية شيء آخر، والتفاوت الحق بالوراثات التاريخية المتصلة، فهي التي تذكي الشعور القومي وترهف الحس الوطني .. فالكثير من اصحاب الثروات هم من الطبقة الدنيا في عرفنا القومي، والطبقة الدنيا في هذا التقسيم تجمع عناصر ليست خليقة الا بأن تساق فقط، لانها تفقد الوجدان القومي الذي هو هبة التاريخ المتصل .

بهذا تفهم — ايها الشعب — انك خليق بان تفكر، وخليق بان تنقد، وخليق بان تقول، ثم لك الكلمة الاخيرة دائماً .. بهذا تفهم ان زعماءك والذين ترشحهم لاعمال كبيرة، يجب ان يستوي فيهم المزاج القومي الصحيح، اما الآخرون فزيفون، مزيفون بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لان نفوسهم خلاء من الجبرية القومية التي يسير المنتخب تحتها الى هدفك الاسمى بدون شعور، ثم يجد فطرته لا تساعده على ان يعمل الا كما تريد ويصلح لك، فليس في ذوي المزاج القومي الخالص، متلاعب او عابث او خائن .

عبد الله العلايلي

سجل

تراث العرب (١)

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي
مدرس الفلسفة في كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول

الطمأنينة سبيلها الى قلوب الذين راعهم ما يبشر به المبشرون من ابناء الجيل الجديد من المستشرقين الذين يهدفون بحركة الاستشراق الى اغراض ليست علمية خالصة — حينما يقرأون هذا الكتاب الذي ظهر منذ عامين في امريكا فنحن لا نزال نظفر بتلك الروح العلمية النزيهة التي كانت تسود الشطر الاكبر من حركة الاستشراق في النصف الثاني من القرن الماضي واوائل هذا القرن . كيف لا، والذين ساهموا في كتابته هم نفر من البقية الصالحة من المستشرقين الاوربيين الذين هاجروا الى امريكا — شأنهم شأن كثير من اهل الفن والعلم والفلسفة الذين ضاقت بهم الحياة في اوربا المضطربة سياسياً في السنوات الاخيرة — فتابعوا فيها تلك التقاليد العلمية الجليلة التي جعلتنا نحن العرب ننظر اليهم بعين الاكبار .

ويمتاز هذا الكتاب بعدة ميزات اولها انه يقدم صورة شاملة عن تراث العرب في مختلف انحائه ومرافقه . ففي الفصل الاول تحدث الاستاذ فيليب حتي عن « امريكا وتراث العرب » وفي الثاني عرض المستشرق الايطالي المشهور ليفي دلافيدا لتاريخ « بلاد العرب قبل الاسلام » ، وفي الثالث تناول جولين اوبرمن بالبحث « اصول الاسلام » ، وفي الرابع درس جوستاف فون جرونيبوم « نمو الشعر العربي وتركيبه » بوصف الشعر خير ممثل صحيح للروح العربية ، ثم قدم لنا المشرف على اخراج الكتاب ، الاستاذ نبيه امين فارس صورة اجمالية عن « الغزالي » بوصفه المثل والنموذج الاعلى للانسان المسلم ، اعني للانسان المطبوع بطابع الاسلام ، وفي الفصل السادس عرج جون لامونت على الصراع الذي قام بين الشرق والغرب ابان الحروب المعروفة بالصليبية متمثلاً في الاتجاهين العسكريين « الحملة الصليبية والجهاد » المكونين للروح الحربية عند المسيحية والاسلام ، وكان من نتائج هذا الصراع ان بدأ التفاهم بين الغرب والشرق فقام الرحالة من اوربا يذرعون انحاء الشرق وانه ليلذ لنا ان نعرف ما عسى ان يقوله هؤلاء ، لهذا جاء هنري سفنج فعرض لنا صورة «بيت المقدس والقاهرة في القرن الرابع عشر من خلال عيون غربية » ، ولا شك ان اكبر اثر للعرب في اوربا كان من ناحية العلم الرياضي والطبيعي ، كما ان هذا الميدان من اخصب الميادين التي ولجها العرب ، فكان لا مناص من تتبع «تطور التفكير العلمي عند العرب» ، وهذا ما فعله ادورد جرجي ، واخيراً اتى رتشرد اتنجهوزن فختم الكتاب بفصل تاسع عن «خصائص الفن الاسلامي» .

ويمتاز ثانياً بانه قد شارك فيه واشرف عليه عرب ، مما يؤذن باننا قد انتقلنا من مرحلة العول على المستشرقين في الكشف عن مناحي تراثنا الى مرحلة المساهمة الايجابية في هذا الكشف ، بعد ان كنا كلولا عليهم في كل شيء ، وحتى الهنود انفسهم قد سبقونا في هذا الباب ، مع اننا نحن اصحابه ! وعلى الرغم من ان نصيب الكتاب العرب في هذا الكتاب ضئيل اذا قيس الى نصيب الغربيين ، فاننا مع هذا نسجل هذه الظاهرة بشيء غير قليل من الزهو والاعتداد ، آملين ان يكون هذا القطر اول الغيث وما قليل سينهمر .

وان المرء ليفتح هذا الكتاب في فصله الاول فيسره ان يرى الدراسات العربية الاسلامية تحتل شيئاً فشيئاً مكانتها الخليقة بها في امريكا . فبعد ان كانت الدراسات الشرقية مقصورة على المصريات والاشوريات والهنديات ، والدراسات السامية كانت كلها تتصل بلغات « الكتاب المقدس » ، اي العبرية والسريانية ، الى حد ان احد الطلاب في جامعة هرفرد قدم رسالة عن موضوع يتصل بالعرب حوالى سنة ١٨٨٠ فلم يجدوا لمناقشتها في امريكا غير استاذ للعربية وحيد، هو سالزبوري ، من جامعة ييل ، ومع هذا فقد كان اختصاصه السنسكريتية ! وحتى كان المتحدثون عن حالة الدراسات الشرقية الى ما قبل هذه الحرب لا يكادون يشيرون ادنى اشارة الى الدراسات المتصلة بالعرب والاسلام . غير ان هذا الاهمال الشديد ما لبث ان اخلى السبيل امام التقدير . ففي سنة ١٩٣٥ انشأت جامعة منشجن كرسياً للفن الاسلامي ، كان الاول من نوعه في امريكا ، وفي السنة

(١) The Arab Heritage, edited by Nabih Amin Faris. Princeton University Press at Princeton New Jersey, 1944.

التالية منح كرسي اللغة العربية في هرفرد مبلغاً قدره ٢١٠ الاف دولار ، ثم تطورت الحال الى حد ان كراسي اللغات السامية في جامعات برنستون و كولمبيا و بنسلفانيا قد شغلها مستشرقون مختصون في الدراسات العربية الاسلامية ، وفي اجتماع الجمعية الشرقية الاميركية في نيويورك سنة ١٩٤٠ خصصت جلسة للمباحث الاسلامية ، والشعور بالحاجة الى تشجيع الدراسات العربية والاسلامية قد عبرت عنه من قبل اللجنة التي الفت في سنة ١٩٣٧ من مجلس الجماعات العلمية باميركا فاعلنت ان هذه الدراسات هي الاولى من غيرها بالعناية والتشجيع في التعليم العالي . وليس من شك في ان الاحوال السياسية الناشئة عن هذه الحرب ستحمل على زيادة العناية اكثر واكثر ، منذ ان اصبحت اميركا تعنى عناية خاصة بمسائل الشرق العربي ، والسياسة كما نعلم من تاريخ الاستشراق كانت دائماً عاملاً من اقوى العوامل في تقويته وانمائه ، وان كان في هذا ما فيه من خسارة محتملة على النزاهة العلمية . ولكن يهون من مخاوفنا على هذه النزاهة املنا في ان يكون لهؤلاء المستشرقين المهاجرين من اوربا الى اميركا اثر حاسم في توجيه هذه الدراسات العربية الاسلامية تلك الوجهة الخالصة لوجه العلم التي عرفنا عنهم في اوربا ، وفي ايجاد تقاليد راسخة في هذا الاتجاه في اميركا بحيث ترث هذه البلاد عن اوربا نفس النزعة العلمية الصريحة غير الملتفتة الى هوى ولا عصبية .

وانا لنشاهد هذه النزعة واضحة كل الوضوح في البحث القيم الذي كتبه ليفي دلافيدا عن «بلاد العرب قبل الاسلام» ، وجورجيو ليفي دلافيدا من اعلام المستشرقين في هذا القرن ينتسب الى الرعيل الممتاز الذي نجد في طليعته من المستشرقين الايطاليين جويدي الكبير والصغير وكيتاني ونلينو وأماري ، وقد كان استاذاً في جامعة روما ثم انتقل عنها في اوائل هذه الحرب الاخيرة الى جامعة بنسلفانيا بأمريكا ، واشتهر خصوصاً بدراساته عن بلاد العرب قبل الاسلام . وهو في هذا المقال انما يقدم لنا صورة عامة عن نتائج ابحاث المستشرقين وعلماء الاثار في هذا الميدان . وكلنا يعلم ان عمدتنا في هذه الدراسة انما هي النقوش . بيد اننا ويا للاسف لم نستطع الوصول الى نتائج كبيرة في هذا الصدد نظراً الى ضآلة الحفريات المنظمة في هذه البقعة التي تعد « مهد الاسلام » . لهذا كان مجال الفرض هاهنا اوسع جداً من مجال التحقيق ، كما ان كل نظرية يلقى بها في التفسير ها هنا هي تحت رحمة الاكتشافات الحفرية الجديدة .

واول ما يسترعي النظر في بلاد العرب انها من الاتساع بحيث تحتمل اكثر من مركز واحد للحضارة ، ومن ناحية اخرى نراها جرداء ، لهذا كان علينا ان نبدأ بأن نتساءل هل كانت بلاد العرب دائماً صحراء ام ان الاحوال الحالية فيها حديثة نسبياً ، وقد اتى عليها حين من الدهر كانت تتسع لعدد وفير من السكان ؟ لقد قال بالرأي الثاني كل من فنكلر وكيتاني ذاهبين الى ان بلاد العرب كانت في اصلها خصبة ثم حل بها المحل شيئاً فشيئاً الى ان صارت الى الحال التي توجد عليها اليوم . ويؤيد هذا الفرض وجود وديان كانت في الاصل مجاري انهار جفت ، مما يحمل على افتراض حدوث شبيه بما حدث في الصحراء الكبرى وصحراء وسط آسيا وجنوب غرب الولايات المتحدة ، ففيها كلها بدأ عصر الجفاف والمحل بعد ظهور الانسان ، نظراً الى وجود حفريات تشير الى ان هذه الامكنة القاحلة اليوم كانت معمورة في عصر ما . غير اننا ويا للاسف لا نملك دليلاً على تاريخ ابتداء هذا الجفاف ولا تاريخ اقدم استيطان بشري في بلاد العرب ، وان كان اكتشاف دوتي Doughty لبعض الادوات المتخلفة من العصر الحجري الجديد في اقصى شمال بلاد العرب واكتشاف برترام توماس Bertram Thomas لاخرى غيرها من ذلك العصر نفسه في الجنوب يدل على ان وجود الانسان ببلاد العرب في عهد متقدم جداً ، وان كنا لا نعلم متى وجد وما مقدار المساحة التي استوطنها ، وما هو نوع الحضارة التي انشأها . كذلك لا نعلم شيئاً يقينياً عن بلاد العرب من الناحية العنصرية في عهدها الاول : فهل كان اهلها ساميين ، ام هل اتى الساميون فحلوا محل عنصر اقدم ؟ ان بعض الشواهد الانثروبولوجية لتدل على وجود نوع غير سامي بين عرب اليوم . ولكن هل « غير سامي » معناه « سابق على السامي » ؟ لسنا ندري .

ثم من كانوا هؤلاء الساميون الذين استوطنوا بلاد العرب ؟ هنالك نظرية تقول ان بلاد العرب هي المهد الاصلي للساميين كلهم ولكنها يعتورها كثير من النقص في الشواهد والادلة ؟ واذاً فمن اين دخل هؤلاء الساميون الجزيرة العربية ؟ سؤال لا اجابة عنه اليوم ولن يجاب عنه الا اذا فتحت هذه البلاد ابوابها للبعثات الحفرية المنظمة المتوالية . ويا ليت الامر اقتصر في الغموض على بلاد العرب قبل التاريخ ، بل لا يزال الغموض نفسه يحيط ببلاد العرب بعد التاريخ ، فثمت ظاهرة تسترعي النظر تماماً في تاريخ الجزيرة الاول

الا وهي وجود حضارة عالية في قسمها الجنوبي لسنا نعرف شيئاً عن اصلها، ولكننا نعلم تمام العلم انه قامت هاهنا حضارة ممتازة،نعلم هذا من بقايا رائعة لمدن عـدة ، ومن آلاف من النقوش مكتوبة بحروف خاصة وبلغة تدعى العربية الجنوبية ، ومن بعض فقرات قليلة نجدها عند المؤرخين والجغرافيين اليونان والرومان ، ونعرف ان بلاد العرب الجنوبية كانت تنقسم الى ممالك اربع رئيسية ودويلات صغيرة . اما الاثار الباقية فلا تزال ضئيلة لقلة الحفريات اما النقوش فقد حلت رموزها، وتبين ان خطها عـلى صلة بالخط الفينيقي، وان كنا لا ندري أهو مأخوذ منه أم هو نما مستقلاً عنه ناشئاً كلاهما عن اصل مشترك . واللغة العربية الجنوبية على الرغم من قربها جداً من اللغة العربية الفصيحة والحبشية، لا يزال فيها مع ذلك كثير من الكلمات والتراكيب الغامضة المجهولة لنا . والى جانب هذا فان المعالم الاجمالية لممالك جنوب بلاد العرب معروفة لنا، اما السؤال الغامض الباقي فهو أصل هـذه الحضارة التي قامت في جنوب بلاد العرب . ويميل بعض الباحثين وعلى رأسهم فنكلر وهمل وحديثاً دورتي Dougherty الى ردهـا الى تأثير عراقي مؤكدين وجود صلات تجارية بين الشومريين والقسم الجنوبي من بلاد العرب منذ ابتداء الحضارة العراقية . غير ان هـذا الرأي لا يمكن ان يقوم بالنسبة الى مجموع الحضارة العربية الجنوبية ، والا فلماذا كانت الكتابة المسمارية مجهولة في تلك المنطقة ؟ ولماذا كان المعمار فيها مختلفاً كل الاختلاف عن نموذجه في العراق ؟ ولماذا اختلفت العقائد كل الاختلاف فيما بين هذين الاقليمين ؟ كل هذه الاسئلة تكسر من قوة ذلك الرأي . اما عن تاريخ هذه الحضارة فالارجح انها تعود الى عصر سابق كثيراً على القرن السادس قبل الميـلاد، لاننا نراها في هذا القرن بالغة كل نموهـا، ولكننا لا نعرف شيئاً عنها قبل هذا التاريخ . ولقد كان سيكون لنا في قصة النبي سليمان مع ملكة سبأ وثيقة قيمة، لولا الغموض الذي يحيط بشخصية هذه الملكة، لان النقوش السبئية المكتشفة حتى الآن التي يرد فيها ذكر كثير من الملوك لا تشير مطلقاً الى ملكة، كما اننا نعلم ان الملكية قد بدأت في سبأ بعد العصر المضاف لملكة سبأ بعدة قرون . والشيء الذي لاشك فيه هو انتشار النفوذ السياسي من الجنوب الى الشمال، لاننا نعلم عن وجود جاليات معانية في شمال الجزيرة من اشهرهـا ددان التي يرد ذكرها في التوراة، ومكانها اليوم المكان المعروف باسم العلا في شمال الحجاز .

واذا كنا اذاً نعرف الكثير عن حضارة الجنوب ، فاننـا لا نكاد نعلم شيئاً عن العرب الشماليين، وكل مانعرفه انهم شعب بدو رحالة لهم بعض مراكز استقرار ضئيلة نشأت تحت تأثير الموجات التي اندفعت من الجنوب الى الشمال في اتجاه البلاد الخصبة في سوريا والعراق . ولكن كان من نتائج غزو الاسكندر للشرق الادنى وانهيار الامبراطورية الفارسية ان حدث تطور حاسم في مصير بلاد العرب . ففي خلال القرن الثالث قبل الميلاد نشاهد قيام اول دولة عربية شمالية بلغت مكانة دولية ، ونعني بها دولة النبطيين الذين استوطنوا الاقاليم الممتد بين البحر الميت وخليج العقبة وخلفوا المؤابيين والعمونيـين في شرق الاردن حيث احتلوا مدائن شهيرة مثل بترا وبوسترا وجرش ، بل ودمشق نفسها لحين من الزمان، كما انحدروا وامتدوا الى الجنوب في قلب الجزيرة الشمالي . ولكنهم لا يبدون لنا على انهم اعراب خلص بقدر ما يبدون انهم بـدو متحضرون تأثروا بالحضارة الارامية : فنقوشهم بالارامية وان كانت لغة التخاطب عندهم هي العربية . ولقد كانت لهم حضارة زراعية وانشأوا الكثير من المدن، فكانت لهم درجة من الحضارة تضارع اية حضارة اخرى في الشرق الادنى في العهـد القديم . وكانت حضارتهم هذه ايذانا باضمحلال حضارة الجنوب : فقد خلف السبئيين شعب جديـد هو الشعب الحميري الذين ظلوا حتى الاسلام ، كما قامت مملكة اللحيانيين التي خضعت للنبطيين ثم ازدهرت بعـد سقوط مملكتهم . وبعد اللحيانيين قامت دولة ثمود التي كان لهـا اثرها في بلاد العرب الوسطى ، ويلوح ان مركز دولتهم كان في مدين حيث عثر موزيل ، العالم التشيكي ، على بقايا معبد وعلى نقش مكتوب باليونانية والنبطية .

بيد ان هذه الحضارة الزاهرة قد تلاها عصر مظلم انتقل فيه العرب من حياة الحضر الى حياة البدو ، فقد انهارت ممالك النبطيين وجنوب بلاد العرب ، وجاء الحبشيون فغزوها ، وضاعت مملكة الحميريين بموت ذي نواس، وهذا الانحـلال يتمثل عيانا في التقليد المعروف باسم انهيار سد مأرب .

ولكن ما لبث العرب ان استأنفوا التحضر في القرن الثالث المسيحي فقامت دولتان هما دولة الغسانيين في دمشق ودولة اللخميين في الحيرة على نهر الفرات ، وكان منهم امرؤ القيس الملقب بملك العرب الذي حاول ان يوحد العرب في مملكة واحدة ، ولقد تخلف لنا نقش نبطي مكتوب باللغة العربية فيه ذكر لسنة وفاة امرؤ

القيس هذا في سنة ٣٢٨ م .

وانه ليتبين من كل ما قلناه انه على الرغم من ضآلة معلوماتنا ، فاننا نستطيع ان نكون لانفسنا فكرة اجمالية عن هذه الحضارة التي وجدت في بلاد العرب طوال اكثر من الف سنة قبل الاسلام، وقد بلغت درجة عالية من المدنية وانتشرت من الجنوب الى الشمال وأثرت تأثيراً حاسماً في حياة شبه الجزيرة العربية . فما بالك اذا قامت البعثات الاستكشافية المنظمة وانفقت عليها الدول العربية بسخاء، وفتحت هذه البلاد للحفائر كلها بلا استثناء ؟ هنالك يتضح كل تاريخ شبه الجزيرة العربية وينظر الناس الى العرب نظرة اخرى على انهم شعب موغل في الحضارة العالية من اقدم عصور التاريخ .

تلك خلاصة لهذا الفصل الممتاز الذي عقده ليفي دلافيدا وكان خير ما في هذا الكتاب، ولقد اطلنا في التنويه به كما نقدمه نموذجاً لما في هذا الكتاب الجيد من مباحث نفيسة .

واذا ما انتقلنا الى الفصل الثالث الذي كتبه جوليين اوبرمن عن « اصول الاسلام » وجدنا انفسنا ازاء مسائل شائكة لم نألفها بعد في دراستنا للاسلام، وان كان المستشرقون قد اولوا هذا الجانب قسطاً وافراً من العناية، ونعني بها المسائل الخاصة بتأثر الاسلام في نشأته وتكوين عقائده وتكييف مناسكه وعباداته بالدينين السماويين المعروفين في بلاد العرب ، وهما اليهودية والمسيحية . والمؤلف يحاول اولا ان يحدد الجاليات التي كانت تقيم في مكة ويثرب من مسيحية ويهودية . وكيف مهدت السبيل لظهور الاسلام كدين سماوي جديد قصد به الى العرب، لان رسالته كتبت « بلسان عربي مبين »، ثم يحاول ثانياً بيان الارتباط الوثيق عنده – فيما بين المضمون الداخلي للاسلام من ناحية واليهودية والمسيحية – في الصورة التي كانا عليها في تلك البقعة – من ناحية اخرى ، متجهاً الى اثبات تأثر من جانب الاسلام بهذين الدينين الاخرين . والمسائل التي يثيرها هاهنا من الخطورة بحيث لا تحتمل التلخيص دون المناقشة والرد احياناً، اما وليس هاهنا مجال لهذا، فمن الخير ان ندع الخوض فيها ولو الى حين .

ولنمض مسرعين الى الفصل الرابع الذي تحدث فيه جوستاف جرونبيوم عن نمو الشعر العربي وتركيبه ، فقال عنه ان الشعر العربي الاول كان – بغض النظر عن كونه اداة سياسية – فناً غنائياً من النوع الوصفي يتناول طائفة محددة من الموضوعات التي جرت التقاليد على معالجتها . والبقايا التي لدينا تدل على أن قسماً كبيراً من عروضه قد تأثر بعروض الشعر الفارس الفهلوي ، وبخاصة بحور الرمل والمتقارب، ومن المحتمل كذلك الخفيف، يلوح انها تكييفات عربية فهلوية فارسية . ويمكن كذلك ان يكون السريان قد أثروا في النشأة الاولى للاصطلاحات الفنية مثل « بيت » الخ . اما الرجز فقد نشأ تحت تأثير الاعتقاد في القوة السحرية للكلمات ، فكان نوعاً من التعاويذ والكلمات السحرية التي يقصد بها الى التعزيم او اللعب وكان شبيهاً بذلك النوع الذي انشأه المو شايم العبري ، ثم اتسع نطاقه فأصبح « الهجاء » ، اما كلمة « شاعر » فمأخوذة تحت تأثير مكانة الشاعر بوصفه عرافاً ، فلفظ « شاعر » معناه « عارف » من شعر بالشيء « أي عرفه » والصلة بين « المرثية » وبين النوع الاولي من الرثاء المعروف باسم « النياحة » تشبه الصلة بين « الهجاء » وبين كلمات الرجز السحرية . وهكذا يستمر الكاتب في بيان تطور انواع الشعر العربي وبحوره وتطور النقد الادبي ، مدلياً في خلال هذا كله بافكار جديدة ونظرات عميقة يحسن برجال تاريخ الادب العربي والنقد لدينا ان يقفوا عليها ويفكروا فيها .

ولا شك في أن الصورة التي يقدمها لنا الاستاذ نبيه فارس عن الغزالي على صغرها دقيقة واضحة ، عني فيها خصوصاً بالوسط العلمي والسياسي الذي عاش فيه الى حد طغى احياناً على دراسة الغزالي نفسه ، هذه الدراسة التي اعتمد فيها صاحبها على « المنقذ » ثم على احياء علوم الدين « فلخصهما تلخيصاً عاماً » ، ثم عرج على تأثيره في اوربا عن طريق « تهافت الفلاسفة » وقارن بينه وبين الديس توماس الاكويني، ثم على تأثيره في الشرق كما يظهر عند ابن العبري وعلى اليهودية عامة ممثلة في فلاسفتها ولاهوتييها . وعلى العموم فأن هذا الفصل وان لم يأت بجديد الا في قسمه الاول ، فانه ممتع حقاً ، مفيد للقارىء الاوربي .

وقد كان بودنا أن نقدم للقارىء صورة شاملة عن كل فصول الكتاب ، ولكن المجال هاهنا لا يتسع لها ، وما قصدنا من هذا المقال ان نغني القارىء عن قراءته ، بل بالعكس انما قصدنا الى اغرائه بقراءة هذا الكتاب الجيد الذي لا يقتصر نفعه على الاوربيين الذين سيجدون فيه صورة واضحة للتراث العربي، بل يمتد الينا نحن العرب فما أحرى هذا الكتاب أن ينقل الى لغة أهله !

القاهرة

عبد الرحمن بدوي

الطفل المـريض

بقلم خليل تقي الدين

افل الليل، والطفل متعلق بثدي امه، وهو في سورة الحرارة، قطعة من نار. ولا تدري الام انائم طفلها ام هو صريع هذه الحمى التي تتأجج في جسده الناحل الصغير. ولكنها تعلم انها اذا تحركت او تكلمت استيقظ الصبي وبكى واعول. فهي لذلك جامدة في سريرها منذ ساعات، محتضنة ولدها، جاعلة صدرها فراشاً له، ملقية راسها على خشب السرير لا تستطيع ان تنام او تستريح. وقد مضت عليها ليال وهي لا تنام ولا تستريح ....

مرضت الام حين مرض الصبي، ونسيت، وهي شابة في مقتبل العمر، زينتها وراحتها وبيتها وزوجها واولادها والناس جميعاً، وانحصرت هموم الدنيا في هذا الهم النازل، ومشاغلها في صعود الحرارة وانخفاضها، ونوم الصبي ويقظته، وسكوته وبكائه.

الام والطفل: هما الحب في الذروة، والحنان يسيل في النظرة، واللهفة مكتوبة سطوراً على الجبين. قلبان يخفقان معاً، وجسدان متصلان ليل نهار اتصالا وثيقاً رائعاً! لو استطاعت هذه الام لوهبت الصغير كل صحتها لتوفر له الصحة، او قدرت، لبذلت، في سبيل حياته، حياتها. كل كلمة تصدر من فمها ابتهال منها الى الله. وكيف لا يسمع الله ابتهال الام المروعة الخائفة. انها الام! وانه الله!

وها هو الليل السادس يقبل. والام تخشى ساعات الليل من دون سائر الساعات. فهي تقول لزوجها: اذا جاء الليل، جاء الويل. وعيناها وعيناه محدقة الى هذا الوجه الابيض الصغير، واذناها واذناه مصغية الى صفير الصدر الضيق والتنفس السريع. لكأن العين تلتهم كل اشارة او حركة فيها دليل على العافية والبرء، فاذا سرى الخوف في مفاصل الام والاب احاله الايمان بالله املا والثقة بالعلم اطمئناناً. وها هو الطفل يتململ على صدر الام ويئن انيناً خافتاً فتهدهده وتغني له: نام، نااااام، ياحبيبي نااااام.. والطفل يبكي ويتلوى، والليلة من ليالي كانون القارسة، والمطر يقرع النوافذ، والريح تعول في الخارج، وكلما ابرقت الدنيا وارعدت ارتعش ضوء الكهرباء. والوالد كثير التطير والتشاؤم، يرى كل شيء من حوله اسود قاتماً ما دام وحيده مريضاً. فما لهذا الضوء يترجرج ويهم بالانطفاء؟ رباه! انك تعرف انه لا يقوى على الحياة اذا انطفأ الضوء الاخر، وانه لا يبسم للحياة الا من خلال بسمة صغيرة. وها هي ذي ساعة المدرسة الكبرى المجاورة تدق الثالثة صباحاً والطفل لم يغف بعد. ولكن، ما له قد كف عن البكاء؟ لا يدري الاب أخير له ان يبكي الطفل ام خير له ان يسكت. وقد انقطع المطر في الخارج وهدأت ثورة الطبيعة وغمر السكون كل شيء. انها لسكينة موحشة قاتلة! وهذا الضوء الذي كان يتراقص منذ هنيهة قد اصبح هو الاخر هادئاً هدوءاً يخيف الوالد ويزعجه. الساعة الآن الرابعة وقد حان وقت الدواء. ويقوم الوالد الى قارورة الدواء ويسكب منها ملعقة صغيرة يناولها الام فتجرعها الصغير فيبكي. هذا الوالد السادر اللاهي، هذا الشاب العائش بين اوراقه واقلامه واخيلته واشباحه اصبح انساناً ضعيفاً امام هذا الانسان الضعيف، وأباً خائفاً مشفقاً امام هذا الولد المريض.

من الينبوع

وحملت تباشير الفجر الى الثلاثة فترة من النوم فاغفوا جميعاً. وافاق الاب في الصباح على صوت زوجته تناغي ابنها وتقول: يا حياتي، يا تقبرني، يا روحي. فاذا بسمة على ثغر الصغير اشرقت بها الدنيا، واذا الحياة تدب في ذلك البيت الخائف، بعد ان عاودت دبيبها في ذلك الجسد الصغير، والشارع قد ضج بالناس والاشياء، والشمس قد شقت حجب الغيم ونفذت الى الغرفة. كل شيء يبتسم في هذه البسمة الحبيبة. وكل شيء يضحك. وتنسى الام، وينسى الاب سهر الليل، وتعب الليل، وخوف الليل، فقد زالت الحمى عن الصغير، وشفي محمود!

وريقات مبعثرة

بين اطلال تدمر

... ساكنة سكون الموت ، كئيبة حزينة . لا ترى غير كثبان من رمال ، وكومات من صخور ، وحجارة ضخام عظام ، هزأت بها السنون ، فلم يحفل حجرها الصلد ، ولا بناءها الجلد ، فومت بها ، من علٍ ، محطمة مهشمة ، متناثرة !

وهذا الوادي ، وادي الموتى ؟ ما ترى فيه غير قبور . قبور في بطن الارض ، حفرت في الصخر ، وزينت بالنقوش ، وازدانت بصور الاهل والاحباب ، وقبور اخر ، تعالت عن ان تدنو من الارض ، فذهبت بطبقاتها الثلاث ، في الفضاء ..

يا ويح هؤلاء الموتى . مجهولون ، مضوا عن الدنيا ، وخلفوا ابرع ما تركه النحاتون الرومان في هذه المدينة الخالدة . فبليت عظامهم ، وظلت فوقهم الحجارة ، والعُمُد ، والسقوف ، ظلوا اسارى الحفر وضحكت فوقهم ، احجار قبورهم ، من هزء الدنيا وسخرية العمر ..

مساكين ! ترى ما هي خطيئتهم . لقد تحابوا ، وعاشوا ، وتآلفوا . وتعلقت قلوب بقلوب ، وهفت نفوس الى نفوس ، ثم تفرق الألاف وتبدد الخلان ، وقدموا للموت ..

ويل للخلود من الموت .

آه ! ولكن الموت سبيل الخلود !

— ٢ —

.. ما أجمل هذي الهضاب كأنها مترادفة يلحق بعضها بعضاً ، او يمسك بعضها بأذيال بعضها الاخر يخشى فرارها . تحنو على الوادي ، حنو اشفاق وعطف ، وتضم في احشائها قبور الموتى ، ثم ينفرج الوادي عن صحراء ، مشرقة ضاحكة ، خصبة ، فيها النخيل والزيتون .

ما انبلك ايتها المدينة !

لقد رأيت عظمة البذخ ، وتمتعت بسلطان الملك ، وشهدت المواكب تغدو الى زين النساء ، ففرحت وضحكت لها ، فلما خلفتك ، لتقاتل عن ملك وتدافع عن وطن ، بسمت بسمة ساخرة ، ونثرت عن اقواسك أكاليل الغار الذابل ، وانفردت ، وقد تخلى عنك المجد ، هادئة ، صامتة .

ترى اهذا ثمن الظفر الذي لاقيته في ايامك الخوالي .. ؟

لقد كنت آية للفن ، وكان الفنانون يقتبسون من جمالك ويتقربون من الخلود بخلودك .. واليوم ، تنفردين ، هادئة ، ساخرة ، تهزأ منك الرياح ، وتعبث في جنباتك الولدان ، بين التلول ، والاطلال ..

اراه ! أهذا مصير الفن .. ؟

— ٦ —

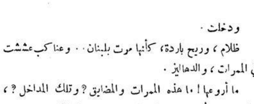
.. صعدت في الجبل ، لاصل الى القلعة ..

قلعة شامخة ، كأنها تريد هرباً الى السماء ، فيجذبها الجبل الى الارض لقد صعدت مائة متر ، وبلغت قمة ، حسبتها القمة ، فاذا امامي خندق عميق .. عميق .

فلأهبط بحذر ، آه ! سأهبط لاصعد ، واصعد لاهبط ، ذاك مثل الدنيا .. !

•

قوس الظفر بتدمر ووراءه في اعلى الجبل تبدو القلعة .



ودخلت .

ظلام ، وريح باردة ، كأنها موت بلبنان . . وعناكب عششت في الممرات ، والدهاليز .

ما أروعها ! . ا هذه الممرات والمضايق ? وتلك المداخل ? ،

ولكن اين المخارج . وهذي الصهاريج ، وتلك الكوى ، . .

سكون ، يخيم فوق خراب ، وظلام يبعث في النفس الرعب .

لقد قالوا : انها قلعة شادها الامير المعني فخر الدين . .

اتصبح هكذا قلعة شادها امير ? . .

— ١٥ —

. . . لقد آن ان استريح . فقد نهكني التطواف طول النهار ، بين هذه الاطلال . لقد طفلت الشمس للمغيب . أأعود الى معبد بعل . ام آوي الى غرفتي ? المساء رائع هادىء . . ما اجدره ان اتنعم به ، آه ! لاستلق هنـا ، فوق التراب ، امام قبر الاخوان الثلاثة . اني احس بالراحة تدب في بدني . ترى اتجد راحة اروح لنفسك من ضمة في التراب ، او خفقة في السماء ?

الشمس تذهّب العمـدان السمر ، والصراصير تهـزج سكرى ، والهواء اصداء . اصوات ، وثغاء ، ورغاء موسيقى فيها عذوبة و كآبة وصفاء كأنها قسم من هذه السماء ، او هذا الهواء ، او هذه الاقواس الساموقة ، او تلك الاودية المحدقة . ينبوع من الاصوات ، ينبجس ، ثم يختلط ، ثم يبتعد . . ثم يغيب .

وهناك طيف يقترب ، طيف حسناء . انها بدوية سمراء ، قبلتها الشمس من وجنتيها وشفتيها الف قبلة وقبلة . تمشي طروباً ، تسوق ناقتها ، وتترنم جذلى .

وخفق قلبي خفقة . ليتها تكلمني . لقد مللت كلام الصخور وحديث الرسوم يا هناي ! لقد ابتسمت . أتراها بسمة شركاً ? لقد نظرت الي مستفهمة ، وقالت : أهذي قصور ? فأجبتها بل قبور !

قالت بلوعة : أوّاه نحن لا نعرف شيئا . ولا يعرفنا أحد !

عذوبة سالت من شفتيها ، وحرقة فجرها قلبها .

سبحانك يا مبدع الجمال !

ما ضاع تطوافي عبثاً . لقد رأيت اليوم جمال الحياة ، وجمال الموت . جمال الحياة الماثل في عينين نظرت الي بهما بدوية هيفاء ، تذوبان رقة ونعسـاً وحلاوة ، تتحرق على ضيعة الجمال بين الكثبان والرمال . وجمال الموت الماثل في هذه الصخور ، وتلك القبور ، وفي العمد الفارعة المنقوشة المذهبة .

جمال الحياة ، وجمال الخلود

ترى ايهما احلى ?

تدمر — صلاح الدين المنجد

محمد

القصيدة التي أنشدها الدكتور نقولا فياض في الحفلة التي اقامتها كلية المقاصد ببيروت ، في ذكرى مولد النبي العربي الكريم .

٭ ٭

نبي العُرب ألهمني بيانا ... على عجزي أهز به الزمانا
وأرفع للنفوس لواء حق ... وأبسطه على الدنيا أمانا
وأجعل في حنايا كل صدر ... لمولدك المبارك مهرجانا

•

ألا في ذمة التاريخ يوم ... به التاريخ ضاء وعز شانا
تبلجت الجزيرة عن سناه ... فألبس رملها العاري جمانا
وحوّل وحشة الصحراء أنساً ... وأفسح للخلود بها مكانا
ودوّى صوته في كل أذن ... على الآفاق يطربها أذانا

•

رمال البيد كم أغريت ظعناً ... فكابد فيك من ظمأ وعانى
يلج بقفرك الخاوي حداءً ... ولا يقضي الحداء له لُبانا
وما درَت القوافل اي سر ... عليه نام صدرك منذ كانا
واي غد يطل به جنانا ... وماء كوثرا يروي الجنانا
تمر بك الليالي كالحات ... ومكةُ كالعرائس عنفوانا
وفي أجفانها حلم بعيدٌ ... تجر به المطارف ارجوانا
وحول اللات والعزى طواف ... يروّعها ويستبق الاوانا
ونجم الجاهلية في افول ... ورب عكاظ معقود لسانا
وأجنحة الملائك في الاعالي ... يمور حفيفها آنا فآنا
الى أن شاء ربك فاستقرت ... وقالت للمقدّر كن فكانا
ومن مهد قريشي عديم ... تعالى النور ، فاكتسح الزمانا . . .
فيا لك مولداً حضنته دنيا ... ليأخذ بالهدى الدنيا احتضانا
ويا لك من يتيم عز يتماً ... وحلى الفقر حلته وزانا
يحمّل نفسه زهداً وسهداً ... وتشريداً وجوعاً وامتهانا

ولا يثنيه وعـد او وعيد ... فيلوي دون دعوتـه العنانا
يرى في الشمس مطمح ناظريه ... ويغمر وجهـه القمر افتتانا
فلو وضعوهمـا في راحتيه ... لما رضي التخاذل ، او توانى
حواه «حراء» كنز الدهر حيناً ... ولغزاً في دجى الغار استبانا
يروح اليه جبريـل ويغدو ... فينفحه الفصاحة والبيـانا
ويصلته على الكفار سيفـا ... ٠تي يقطر دماً يقطر حنانا . . .
و كان هناك في الحكم انتداب ... عـلى الاعراب يثقلهم هوانا
فللروم الشآم عنت ودانت ... وللفرس العراق عنـا ودانا
فهدّم بعد قيصر مجد كسرى ... وقال خذوا لوحدتكم ضمانا
وأعطاهم على الاسلام دينـا ... يوزّع في الورى الشيم الحسانا
ولم يحبس عن الانثى حقوقـاً ... ولم ينقض اسلطتهـا كيانا
فكان لها جلال الأم عرشـاً ... واحسان البنوة صولجـانا
تخضّب بالحياء لها جبينـاً ... وما خضبت لزينتهـا بنانا
فيا دنيا استعزي ان افقـاً ... جديداً للمكـارم فيك بانا
يفيض تسـامحاً ويشع عدلاً ... ويصلي من بغى حربـاً عوانا
تعـاليمٌ لو العرب استمرت ... عليها ، اين منهـا ان تُهانا

•

يتيم الدهرُ ، للدهر انقـلاب ... دها الاجيال منها مـا دهانا
وهذا اليوم بارقة الامـاني ... تطل فلا تضل بهـا خطانا
ليجمع شمـله في المجد شعب ... على شرف العروبة ١٠ استكانا
ولبنـان الذي للضاد فيه ... منابع لم يفجّرهـا سوانا
وقد أبقى لهـا في كل ارض ... يحل بهـا بنوه ترجـانا
يحيّي اليوم عيدك ، مستقـلّاً ... فتملأ بهجة العيد الجنـانا

•

بني امي خبرنا الغرب دهراً ... وشـاهدنا مطـامعه عيانا
فكيف يغرنـا منه سراب ... نشد له الرحال ومـا سقانا
تباعدنا زمانـاً وافترقنـا ... فهلا جـاء موعدنـا وحانا
وهلا كان غير الحب حـال ... يوحدنا ويبلغنـا منانا ؟
ولا خوف على استقلال شعب ... اذا هو حول رايتـه تدانى
ومـا استقلالنـا الا سبيل ... لنوسع في ما ٠. العليـا مدانا
ضرعتُ الى السماء بحق عيسى، ... وحقك يا محمد أن يصـانا

نقولا فياض

مطايا برعم !

كنت لاعوام خلت، اشهد مولد الربيع في حديقة خضراء، ولقد وقفت يومئذ فجأة، وامسكت ببرعم لم يتفتح بعد، دون سائر البراعم التي شقت جدرانها عن الطيب والالوان! . وقلت للبرعم في مثل الغصة، ان يدع الطيب في اعماقه، وكان الطيب يضج ما وراء الغلائل الرقيقة، فكأنه كان يستعجل ساعة انتصاره المفترض وموكبه الندي ! .

ومرت الايام، ولم أعرف عن ذلك البرعم شيئاً، أأطلق الطيب في الافاق، فمات بعد هبة ريح وترنح نسيمات!، ام ممع القول الفصل فظل في البرعم سراً حير النحل والطير، واقام الشوك وأقعده في تلك الحديقة العذراء . . . ولم ارَ تلك الحديقة منذ ذلك اليوم ! .

وتمر الايام، وانا افكر في ذلك البرعم وفي المصير الذي وافاه . أمات برعماً . . . ام مات وردة حمراء ! .

واليوم، وقد بعدت الشقة بيني وبين تلك الحديقة ذات البرعم الحبيب، اتساءل – ويحق لي – عن مولد الربيع المقبل، وعن برعم يضرب عن التفتق في موكب الورد ! . ولكن الايام، اعق من ان تمهل، واسرع من ان تتريث ! .

ومنذ اسابيع، اطل علي برعم، فتاة بعد في فجر الطفولة، تحاول جهدها النقلة الى رياض الصبا ! . فعرتني عاطفة الذكرى، وذكرت ذلك البرعم، فاستحالت الطفلة في عينيّ برعماً اخضر، يحاول الافراج عن الطيب! . وكنت بعد في سكرة الذكرى، ساعة قلت لهذا البرعم الجديد ان لا يطلق سراح طيبه، فيكون بذلك حديث الشوك والورد والرياض المجهولة! . واحب ان اكون مخلصاً، لقد احببت البرعم الجديد حباً جماً، وانزلته من قلبي منزل الوله والتقديس، والبرعم الجديد، ريق بعد تحاول له الفتنة والبسمة والاغراء الطفل! . ولقد تحدثت الى البرعم الجديد وغمرت وجده بوجدي وهمه بهمي ونظرته بنظرتي، وشهدت كيف طأطأ الشوك رأسه احتراماً للنجوى، واحتفالا بالهوى البكر في قلب الشتاء، الذي عشش فيه الربيع المقبل والاف البراعم الناضرة المنتظرة! .

ولقد كنت بعد ذلك مع البرعم الجديد على قسوة، فما التقيته مرة الا وحاولت ان املأ طريقه بالاشواك، ولكن غريزة التطلع الى المجهول، جنحت ببرعمي الى شاطيء الحب، هذا الشاطيء الذي تهدر على رماله وصخوره امواج الوجد والهوى والوله ! .

واصبحت مع البرعم على الشاطيء المسحور، وكان حديث وكان بث وكان قول كثير، وغمرت البرعم بالدفء والحنين، وخفت عليه من الامواج ! . وللامواج عصفة وزئير وسحق، وللامواج هدر وغمر ورياح، وللامواج حديث وبث وقول كثير، وفي غمرة اللقاء على شاطيء الحب، قلت للبرعم ما لم اقله لاحد، وما لم يسمعه احد، قلت له ان الطريق الى النعيم اشواك، وان النفاذ الى جزيرة الشوق دونه حصد القتاد، وقلت له ان دوني ودونه جدار من الشك والاثرة والدس، وكان البرعم يتمايل على غصنه، ويغرق عينه في عيني، وكدت استسلم الى غمرة التطلع البعيد، ولكن البرعم عاد بي الى واقع حضنه الخيال، فرأيت الدنيا في عينيه لي وله، لنا وحدنا ! .

وابتعدنا عن الشاطيء، وكانت خطى البرعم قلقة على الرمال في الطريق الى المجهول، وكانت الاصداء ترج في اذن البرعم، اصداء ماكرة مرائية عابثة، وكان البرعم يتبرم بما يسمع، ويود لو كان بين الاصداء وبينه هوة غريقة، ولكن ليان السمع عنده ارغمه على السمع، فسمع، وقذف به الى البوح، فباح، وهو ينكر الاصداء، ويرى على خيوطها اطياف غد اسود قاتم، اطيافاً تحطم احلام الطيب، وتشد الوان البرعم في تلفتها صوب الحق ! .

وافترضت الشك في البرعم، فطفرت على اوراقه الخضراء دموع التبصر، ولآليء الانتظار فكأنه كان يخاف انفلاتي منه ورجعتي اليه ! .

واليوم، والبرعم بعد يهمهم بمثل الثورة على الاصداء، اراني ابتعد عنه، اكان ذلك من اجل البرعم الاول الذي آثرت له ان يظل قيّما على طيوبه ام كان ذلك لان القضية عندي قضية برعم بدأت تعبث به الرياح ! . .

ولقد نظرت امس الى حديقتي، والشتاء يفرش رداءه الابيض على جنبات التراب، فرأيت برعماً يتطلع الى فوق . . . فذكرت الطفلة . . . برعمي الجديد .

وقلت لبرعم حديقتي، أتطلق الطيب من عقاله ؟ . واجاب البرعم ! لا تعد الى الطفلة، برعمك الجديد ! . واتركها للاصداء . للرياح . . . اما انا فلن اطلق الطيب من عقاله . . . وسأظل على الدهر برعماً ابداً . . .

وللطفلة اليوم . . . لبرعمي الجديد . . . ان تنتظر زوال الرياح وموت الاصداء . . .

فانا بعد اجاور الشوك في انتظار المعجزة ! . .

صلاح الاسير

ابرهيم عبد الفتاح طوقان

بقلم خليل السكاكيني

★

قبل ان أتكلم عن شاعرنا المحبوب ابرهيم طوقان من حيث هو شاعر ، لا بد لي من كلمة في الشعر نفسه .

ما الشعر ؟

ضم مكان طيب حسن بعض الظرفاء ، فقال احدهم :

أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه   منّى فتمنينا فكنت الأمانيا

فقال آخر : هذا هو الشعر

فقال آخر : وما الشعر ؟

فقال آخر : هو ما يثير الشعور

فقال آخر : لو لطمتك فأثرت شعورك فهل تحسب اللطمة شعراً؟

فقال : نعم ! واجيبك بقصيدة مثلها من وزنها وقافيتها أقول فيها : لو ذات سوار لطمتني !

لتعريف الشعر طريقتان : ايجابية وسلبية ، الايجابية ان نقول انه كذا وكذا . والسلبية ان نقول انه ليس كذا وكذا . وهذا ما يقال له المعرف الجامع المانع ، اي الذي يجمع المحدود ، ويمنع غيره من الدخول فيه . وقد جمع المتنبي الطريقتين في تعريف المجد حين قال :

فلا تحسبنَّ المجد زقاً وقينة   فما المجد الا السيف والفتكة البكر

وقد اختلف الناس في الطريقة الايجابية : ولا يتسع المقام لان ننقد آراءهم ، فنثبت او ننفي ، ولكن لنأخذ الشعر نفسه ونستخرج تعريفه منه .

اذا اخذنا الشعر وجدنا انه موضوع واساوب

اما الموضوع فأمران :

الاول : الانفعالات النفسية القوية من حب وشوق وشكوى وعتاب واستعطاف وحماسة وفخر ورثاء ومديح وهجاء .

الثاني : الحكمة ، وهي شائعة في الشعر العربي ، وان كان القدماء لا يعدون الحكمة من الشعر كما اشار الى ذلك المتنبي حين قال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري .

اذا عرفنا ذلك فلا غرابة ان يخلو الشعر العربي من الرواية — وان حاول بعض شعرائنا ان يسدوا هذه الثلمة ، فوُفقوا وأجادوا — لأن سياق الرواية ليس كله يستحق ان يكون شعراً ، وأنت اذا تفقدت رواياتنا حتى رواية ابي زيد بن رزق الهلالي المشهورة وجدت انها نثر وشعر ، النثر في ما يصلح للنثر ، والشعر في ما يصلح للشعر ، يسرد الراوي حكايته نثراً يعيش فيها ويتأثر بها كأنه احد ابطالها ، فاذا جاء الى موقف غرام او عتاب او حماسة تحول الكلام شعراً فأخذ ربابه وغناه غناء ، حتى اذا افرغ ما يجيش به صدره من هذه الانفعالات ترك الرباب ، وعاد الى النثر والحديث .

اذا قيل ان هذه الروايات انما افرغت في قالب شعري لانها غنائية من اولها الى آخرها ، ولما كان الغناء موزوناً وجب ان يكون الكلام موزوناً ، ليوضع موزون على موزون ، فالجواب اذا لم يجز ان تكون الرواية كلها من اولها الى آخرها شعراً فكذلك لا يجوز ان تكون الرواية كلها من اولها الى آخرها غناء ، لان موضوع الغناء هو موضوع الشعر نفسه فما لا يصلح لهذا لا يصلح لذاك .

اذا جاز ان تكون الرواية شعراً ، وجاز ان تكون غناء اذن لنترك النثر ولنترك الحديث ، ولنكن مثل الطيور المغرده لانتبادل التحيات ونتجاذب اطراف الحديث الا شعراً وغناء ، وليس لمن لا يحسن الشعر ولا يحسن الغناء الا ان يقبع في بيته ولا يكلم انسياً!

لنعد الى موضوعنا .

اما اساليب الشعر فأمور :

الاول : ان الشعر موزون ، خذ الشعر العربي من أقدمه الى احدثه تجده موزوناً ، ومن العجب ان يحسن اولئك الشعراء القدماء — وبينهم من كانوا من خرّاب البادية — اقامة الوزن في كل ما قالوه ، مع ما في أوزانهم من صعوبة ودقة . وقد يكون الفرق بين الوزن الواحد والآخر طفيفاً جداً لا يشعر به .

الثاني : ان الشعر مقفى كأن القافية جزء من الوزن ، وللقافية شروط صعبة أهمها أن تكون مستقرة في موضعها كأن البيت بني عليها لا مستدعاة قلقة لا تربطها بالبيت رابطة ، وهنا لا بد لنا أن نقول أن اللغة العربية موزونة مقفاة فهي أطوع اللغات للوزن والقافية فما من لفظة الا وجدت لها اخوات كثيرات من وزنها وقافيتها

الثالث : ان الشعر اجمال لا تفصيل ، أو كما قال البحتري :

الشعر لمح تكفي اشارته   وليس بالهذر طولت خطبه

من ذلك قول ابن زيدون :

واذ هصرنا غصون الانس دانية   قطوفها فجنينا منه ماشينا

لم يفصل ما جناه ولكنه أجمل فقال جنينا منه ماشينا ، والاجمال

هنا أوسع مدى من التفصيل وأدعى للتعظيم من قبيل اذ يغشى السدرة ما يغشى ، وذلك لاسباب : منها ان الشعر لا يتسع لاستيفاء البحث في كل موضوع والاحاطة بأطرافه ، ومنها ان الشعر ليس من وظيفته أن يفصل ، فاذا عرض لموضوع فلينتزع منه وحياً أو جمالا ، لا ليلقي درساً فيه والاجمال في هذا يغني عن التفصيل .

بلى قد يفصل الشاعر ولكن لا بقصد التفصيل، وانما يفعل ذلك تمهيداً لغرض آخر

خذوا قصيدة البابي المشهورة ، ومطلعها

تذكر بالباب ظبياً غريرا وعيشاً رقيق الحواشي نضيرا

يصف الشاعر في هذه القصيدة وادياً في سفح تياء بشيء من التفصيل فيه ذكاء ومهارة وجمال وموسيقى ، من ذلك قوله في

نسيماً عليلًا وظلًا ظليلًا
وماءً غديراً وروضاً مطيرا
تعانقُ فيه الغصونُ الغصونَ
ويلثمُ فيه الغديرُ الغديرا

ولم يفعل ذلك كله الا تمهيدا لقوله في آخرها :

هناك خلفتُ صفوَ الحياة
نعم ، ودفنت الهنا والسرورا

لاننا لا يمكننا ان نعرف قدر مصابه الا اذا عرفنا قدر ما فقد ، لو انطق الله آدم بالشعر لوقف على باب الجنة مطرق الرأس حزيناً يودعها بمثل هذه القصيدة

خذوا قصيدة الفرزدق التي سرد فيها حكاية ذلك الذئب الذي لقيه في الصحراء في ليلة ظلماء ، فأطعمه من زاده ويده على قائم سيفه وجعل يحدثه كأنهما رفيقا رحل بشيء من التفصيل . من ذلك قوله :

وكل رفيقي كل رحل ـ وان هما
تعاطى القنا قوماهما ـ أخوانِ

فلم يذكر كلمة «اخوان» في آخر هذا البيت حتى نسي الذئب والزاد والسيف والصحراء والحديث، لج به حنينه الى ولديه الظاعن والمقيم . فقال :

فهل يرجعنّ الله نفساً تشعبت	على أثر الغادينَ كلَّ مكانِ
وأصبحت لا أدري أأتبع ظاعناً	ام الشوقُ مني للمقيم دعاني
وما منها الا تولى بشعبة	من القلب ، فالعينان تبتدران

ان حنين الفرزدق الى ولديه والذئب يتحفز للانذار به وقد تكشر ضاحكاً ، وتلك حالة يذهل فيها المرء عن نفسه ، لحنين تحنى له الهام اجلالا واكباراً

اذا قيل ما الشعر ؟ قلنا : موضوعه كذا وأسلوبه كذا، هذه هي الطريقة الايجابية . واذا أردنا ان نعرف الشعر على الطريقة السلبية قلنا : ان الشعر ليس فلسفة ولا علماً ولا ديناً ولا تاريخاً ولا سياسة ولا نثراً .

ولكن هناك امرين لا نستطيع ان نعللها :

الاول : قول الشعر .

ماذا يوحي الى الشاعر ان يقول الشعر ؟

القلب ؟ لماذا لا يكون كل اصحاب القلوب شعراء

العقل ؟ لماذا لا يكون كل اصحاب العقول شعراء .



الشاعر ابرهيم طوقان

الغرائز ؟ لماذا لا يكون كل الناس شعراء

الحوادث ، كالحروب والثورات والانقلابات والنكبات ؟ لماذا لا يكون كل الذين يصلون نارها شعراء .

الانفعالات من حب وكره . من فرح وحزن . من فخر وحماسة الى غير ذلك ؟ لماذا لا توحي هذه الانفعالات الشعر الى هذا دون ذاك ؟

الطبيعة ؟ لماذا لا يكون كل الذين تقلهم الغبراء وتظلهم السماء شعراء .

المدرسة ؟ كيف نعلل ظهور ذلك الجم الغفير من الشعراء الاميين ابناء البادية قبل الاسلام وبعده كامرىء القيس وطرفة بن العبد والمتلمس والفرزدق وغيرهم ، بل هذه المدارس في عصرنا هذا تعلم اصول الشعر وتكلف طلابها ان يحفظوا الشيء الكثير منه ، ولكن قد تتوالى السنون اثر السنين قبل ان يظهر شاعر بين هذه الالوف الكثيرة من الطلاب .

بل سل الشاعر نفسه كيف صنعت هذه القصيدة او تلك ؟ فلا يدري كيف يجيبك . بل قد ينظر هو نفسه في قصيدة قالها من عهد قريب او بعيد فيعجب كيف صنعها ، ولا يشك انه لو حاول ان ينظم مثلها لما استطاع ، وقد يحسب انها ليست من نظمه ، كأن لكل شاعر صاحباً من الجن يلهمه الشعر كما كان العرب

القدماء يقولون، او كأن الشعراء اشبه بالابواق تخرج اصواتاً ولكنها ليست منها كما قال سقراط . *

الامر الثاني : التأثر بالشعر .

نقرأ ما نقرأ من كتب ، ونسمع ما نسمع من اقوال، ولكن ليس شيء مما نقرأ او نسمع اعمق اثراً فينا من الشعر، مما يصح معه ان نقول ان الشعر يحكمنا من حيث ندري ومن لا ندري .

من الشعر ما لو قرأه المحزون لخف حزنه، او المتألم لخف ألمه، او الجبان لشجع، او الشحيح لبذل، او المجهود لاستراح او المتشائم لتفاءل، او من استولى عليه الهرم في جسده ونفسه لتجدد شبابه، او من كان على فراش الموت لاستقبله باسماً .

بل ان من الشعر ما لو قرأه الجائع لشبع، او العطشان لروي، او المريض لثابت اليه صحته كما قال الشاعر :

ولا انشد الاشعار الا تداويا

قد نرى من سلوك الانسان ما نحار في تعليله فاذا فتشنا وجدنا ان ذلك يرجع الى بيت من الشعر قرأه في صغره ثم نسيه وبقي اثره فيه

لا نستطيع ان نعلل كيف يخلق الشاعر قطعة من الشعر، ولا نستطيع ان نعلل كيف نتأثر به، ومن الخير ان نجهل كيف يخلق الشعر، وان نجهل كيف نتأثر به ، فليس شيء ادعى الى انحطاط الشعر من ان يكون صناعة، كما انه ليس شيء اسخف من ان يكون التأثر به تصنعاً .

ومهما يكن الامر فان الشعر حاجة من حاجات الانسانية لا تستغني عنه في حال، كان حاجة في بداوتها، وهو حاجة في حضارتها، هو حاجة اذا سعدت ، وهو حاجة اذا شقيت، وانه لمن حسن حظ الانسانية ان يكون فيها شعراء وان قلوا .

كيف نستطيع ان نستغني عن الشعراء وهم الذين يعزوننا في احزاننا، ويهنئوننا في افراحنا، كأن الناس اقاربهم وذوو عنايتهم

لم يفتش احد عن الفضائل والاخلاق العالية كما فتش عنها الشعراء، ولم يذعها احد كما اذاعوها ، كأنهم في هذه الدنيا رسل حياة وعلماء اخلاق واساتذة تربية .

لم يعن احد بالانفعالات القوية عناية الشعراء بها كأنهم من الناس قلوبهم الحساسة واعصابهم المرهفة وألسنتهم الناطقة .

لم يثن احد على البطولة كما اثنى عليها الشعراء فليس شيء اكره اليهم من ان يكون الناس جبناء انذالا .

لم يعن احد بالحكمة ينتزعها من الحياة لا من الكتب انتزاعاً، فيفرغها في عبارة رشيقة متينة موزونة مقفاة ليسهل حفظها او الاستشهاد بها كما فعل الشعراء كأنهم من الناس ادمغتهم المفكرة .

لم يعن احد بالجمال في السماء والارض ، في الانسان والحيوان والطير والزهر والظلال والخطوط والاشكال والالوان عناية الشعراء بها كأنهم من الناس عيونهم الرائية وكأنهم يضنون ان يتجلى هذا الجمال على توالي الايام فلا يمس قلب احد .

لم يستوح احد العقل والقلب والغرائز كما يستوحيها الشعراء ، لا يكلفك الشعراء ان تلغي عقلك او قلبك ، ولا ان تكبت غرائزك، لانك في نظر الشعراء عقل وقلب وغرائز، ولذلك تراهم في كل واد يهيمون .

يسبقون الحوادث فيهيئون اسبابها ، يسايرونها فيغذونها ، يجيئون بعدها فيقرونها او ينتقدونها ، كأنهم مرآة عصرهم تتجلى فيها الحقائق واضحة لا غبار عليها .

لم يعن احد باللغة عناية الشعراء بها يتخيرون الالفاظ تخيراً ، وقد يرتجلونها ارتجالا، فما استعملوه عاش ، وما اهملوه مات . فهم هم الفصحاء البلغاء، اللغة لغتهم والقول ما قالوا .

اذا عرفنا ذلك فلاعجب ان تفخر كل امة بشعرائها، وتستشهد باقوالهم كأنها آيات منزلات .

ولعل العرب اعرف الناس بقدر الشعر والشعراء .

ألم يكن للعرب اسواق يتناشدون فيها الاشعار ويتفاخرون ؟

ألم يكن الشعراء واكثرهم من أصل وضيع : هذا اجير عطار كأبي نواس ، وهذا بائع جرار كأبي العتاهية ، وهذا سقاء كأبي تمام ، وهذا دلال بطيخ كالوأواء الدمشقي ، وهذا دلال كتب كالخزرجي ، وهذا بزاز كشهاب الدين الاعزازي ، وهذا من اجلاف البادية او صعاليك العرب ، وهم كثر ، ألم يكن هؤلاء الشعراء عشراء الملوك والامراء والكبراء يؤاكلونهم ويشاربونهم ويدخلون ويخرجون بلا كلفة كأنهم أكفاء ، بل ان منهم من مما به شعره فحاول الملك كأمرئ القيس والمتنبي وابن زيدون صاحب

صاح في العاشقين يا لكنانة - رشأ في الجفون منه كنانه

ألم يكن الشعراء اساتذة الملوك والامراء يمدحونهم بما فيهم ، او بما يجب ان يكون فيهم ، فكانت قصائد المدح دروساً في الفضائل والاخلاق والسياسة .

ألم يتنافس الناس الى ان يكادوا يتقاتلون اذا مر بهم شاعر في استنزاله عليهم ، كأن نزول الشاعر على احدهم شرف لا يساميه شرف .

ألم يكن البيت الواحد من الشعر يرفع قبيلة بعد خمولها او

يضعها بعد عزها .

ألم تدم الحرب اربعين سنة بين بكر وتغلب بسبب ابيات اربعة او خمسة قالتها البسوس . فسميت هذه الابيات الموثبات .

ألم يتمنّ عضد الدولة حين سمع قصيدة ابي الحسن الانباري التي مطلعها :

علوٌّ في الحياة وفي الممات   لعمرك تلك احدى المعجزات

في رثاء الوزير طاهر بن بقية الذي ظفر به عضد الدولة فقتله بين ارجل الفيلة ثم صلبه . ألم يتمنّ ان يكون هو المصلوب وان تكون تلك القصيدة فيه .

ألم يكن من عادة العرب اذا نبغ بينهم شاعر في قبيلة أتت القبائل الاخرى فهنأتها به ، وصنعت الاطعمة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الاعراس .

أين ترى مثل هذا ؟

بل انت اذا فتشت وجدت ان العرب عبدوا الشعر او كادوا ، وآثار هذه العبادة شائعة في تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده .

واليك البيان .

ألم يعلق العرب في استار الكعبة بازاء تماثيل آلهتهم قصائد مختارة مكتوبة بماء الذهب كأنهم كانوا يعبدون الفصاحة في ما كانوا يعبدون .

ألم يبلغ بهم الامر اذا سمعوا الشعر الجيد ان تأخذهم النشوة ، فيسجدوا له تلك السجدة المخصوصة بالشعر .

الا ينشدون الشعر انشاداً ويرتلونه ترتيلاً كما نقرأ الكتب المنزلة اجلالاً له عن ان يقرأ كما يقرأ النثر من كلام الناس .

ألا يقولون اذا اعجبوا بفصاحة شاعر :

هذا شاعر ملهم ، بكر عطارد[1] قد انزلت الفصاحة على لسانه كأن الشعر وحي وكأن الشعراء انبياء او ابكار الآلهة .

الا يقولون اذا وصفوا الشعر الجيد : هذا شعر رقيق ، عذب ، سائغ ، شائق ، لطيف ، مأنوس ، رخيم ، رشيق ، سلس الى غير ذلك من الصفات الجميلة كأنها اسماء الشعر الحسنى .

اما بعد الاسلام فقد بلغ شغف العرب بالشعر انهم نقشوه على جدران منازلهم وانديتهم ، وعلى حجارة خواتمهم ، وكتبوه في صدور مجالسهم ، وعلى القباب والابواب ، وطرزوه على الستائر والطنافس والكلل والاسرة والوسائد والمرافق والمقاعد ، وعلى القناني والاقداح والكاسات والجامات وسائر آنية الفضة والذهب والصيني ، ونقشوه على العيدان والمضارب والطبول والمعازف ، وزينوا به الثياب فطرزوه على ذيول الاقمصة والاعلام والاردية والاكمام ، وعلى العصائب والزنانير والمناديل والمذاب والمراوح حتى النعال والخفاف ، وزينوا به مظاهر أبدانهم فكتبوه بالحناء على الجبين والخد والاقدام والراح ، ونقشوا به التفاح والاترج وغيرها ، فكيف التفت رأيت الشعر منقوشاً او مطرزاً او مكتوباً او منسوجاً » كما قال جرجي زيدان

اذا لم يكن ذلك كله عبادة فماذا يكون ؟

ولعل اللغة العربية من اطوع اللغات للشعر ، ففيها الجزالة والرقة ، والتقديم والتأخير ، والحذف والاثبات ، والترادف والاعراب والتنوين وغير ذلك مما لا تجاريها فيه لغة من لغات الدنيا .

الا اذا كان الشعر ذا جلالة فعند العرب ، واذا كانت لغة شعرية فاللغة العربية .

على اثر خروج فقيدنا ابرهيم طوقان من المدرسة وقد استوفى ثقافته قرأت له شيئاً من شعره ، فأعجبني كثيراً . ورحت ابشر الامال ان سيكون لنا منه شاعر كبير ، وتقاضاني الواجب ان افد من فوري على والده اهنئه ، وما كان احق الوالد ان يهنأ ، وما كان احق الولد ان يحتفى به ، فتأتي الوفود ، وتصنع الاطعمة وتجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الاعراس ، فما نبوغ شاعر لاسيما في هذه الايام بالشيء القليل . والشاعر النابغة ليس ذخر اهله ، ولكنه ذخر الناس اجمعين ، وليس هو ذخر جيله ، ولكنه ذخر جيله وذخر الاجيال التي تليه ، ولكن وا اسفاه لقد تحول العرس مأتماً .

لا احاول ان اتكلم عن شعر فقيدنا العزيز من كل نواحيه . ولكنني سأقتصر على بعض هذه النواحي .

١ — من عادة الشعراء المألوفة ان يقلد الشاعر منهم في اول امره غيره ، ثم يستقل بطريقته ، فهذا المتنبي قلد في اول امره ابا تمام ، وهذا عمر بن ابي ربيعة قلد في اول امره جميلاً ، واما شاعرنا فانك اذا نظرت في شعره من اوله الى اخره فانك لا تجد فيه اثراً للتقليد ، بدليل ان شعره كله من طراز واحد .

٢ — من عادة الشعراء المألوفة ان يعنى الشاعر منهم في اول امره باللفظ اكثر من عنايته بالمعنى ، واكثر ما يكون ذلك اذا كان المعنى مبتذلاً او مسبوقاً اليه . فيفرغه في قالب غريب ليخفي ابتذاله ، او ليخفي اصله ، واما شاعرنا فان الالفاظ ألفاظه والمعاني معانيه ، وهذه على قدر تلك لا تزيد ولا تنقص .

٣ — من عادة الشعراء المألوفة ان تكون الملكة ضعيفة في اول امرها ثم تقوى مع المزاولة المستمرة بحيث تستطيع اذا قرأت

(1) وهو اله الفصاحة عند اليونان .

المرح وأثره في النفس

بقلم الآنسة فلك طرزي

قد* يعتبر تطفلًا مني ان اتحدث عن المرح، في حين ان المرح في غنى عن كل شرح وحديث، اذ هل باستطاعة المرء مهما اتسع خياله، ودقت شاعريته ان يتناول بالوصف من مختلف الاحساسات التي تتنازعه وينفعل بها، الا ما يخلف فيه هذا الانفعال من آثار وعوارض ؟ ولكن يظهر ان الانسان مطبوع على التحدث، بل على الاكثار من الحديث عن كل ما هو محروم منه : فالجائع مثلا لا يطيب له حديث مثل حديث الطعام. والمحروم من نعمة من النعم لا يجد راحته الا في التحدث عنها حتى يظفر بها ! وكذلك من يرجو نهاية من الحياة لا يفتر من نشدانها بمختلف الاساليب، فاذا بلغها انصرف بكليته الى الناحية العملية منها :

فالمرء اذن يتحدث عن الشيء بعينه عندما تكون رغبة هذا الشيء فيه سلبية لا يقابلها ايجاب ، في حين ان حديثه يتناول في حالة الايجاب ، ما يلمس من آثار هذا الشيء فيه ، وما يتبين من نتائجه .

فلا حرج علي اذن ان تحدثت الليلة عن المرح، ولا يعتبر تطفلًا سيما ان تناولت موضوعه بالبحث وبعض التحليل ما دمت اتحدث عن شيء حظرت علينا نعمته . وهل كان لي ان احاضر على المرح لو كنت انعم في ظله بحياة تأخذ مجراها الطبيعي في النفس دون ان تعترض سبيلها عثرات، هي للرجعية سلاح وذريعة ؟

ولكني في دمشق ... ودمشق كما يعلم ويشعر اصحاء

لاحدهم شيئاً ان تقول : هذا قاله في صباه، وهذا قاله بعد نضجه واما شاعرنا فان ملكته الشعرية هي هي في كل شعره، اذا سمعت قصائده الاولى فلا تظنها الا لشاعر زاول قرض الشعر من عهد بعيد .

٤ – للشعراء تجوزات خرجوا بها عن السنن المألوف حتى قيل يجوز للشاعر ما لا يجوز للناثر، كأن للشعر لغة قائمة بنفسها، وللنثر لغة اخرى . من هذه التجوزات انهم يقدمون حيث يجب التأخير او يؤخرون حيث يجب التقديم، ومنها انهم يستعملون الرقيق حيث تجب الجزالة، او الجزل حيث تجب الرقة، ومنها انهم يضطرون الى استعمال المهجور او القليل الاستعمال من الالفاظ والتراكيب، ومن نظر في شعر فقيدنا العزيز رأى انه حسن الرصف سديد المسلك في غير كلفة مما يدل على فطرة شفافة وذوق سليم، وهذا لا يوفق اليه الشعراء الا بعد ان تستحكم ملكتهم . وقد لا يوفقون .

٥ – للشعراء أدوار لا بد أن يمروا بها ،أهمها دوران :

الاول : دور القلب . وشعراء هذا الدور اما شعراء حب ، فيجعلون من حياتهم روايات غرامية هم أبطالها ،يشجون ويترنمون ويطوفون بأكناف السحاب المخيم ، وامام هذا النوع من الشعراء هو سليمان الملك صاحب نشيد الانشاد وهو في ميعة شبابه . واما شعراء قوة فيجعلون من حياتهم روايات بطولة لا تجد فيها الا المغامرات اثر المغامرات وامام هذا النوع من الشعراء هو المتنبي القائل :

وغير جناني للغواني رمية
وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لاطراف القنا كل شهوة
فليس لنا الا بهن لعاب

وقل أن تجد شاعراً في هذا الدور جمع في نفسه بين رقة الغزل وقسوة البأس ،بين سليمان والمتنبي

ومن وقف على شعر فقيدنا العزيز وجد أنه كان من الشعراء القليلين الذين جمعوا في انفسهم بين الاثنين،فهو يمثل سليمان في رواية الحب ،وهو يمثل المتنبي في رواية البطولة

الدور الثاني : دور العقل

في هذا الدور وهو آخر أدوار الشعر ينزل القلب عن عرشه ، ويسلم صولجان الملك الى العقل اما شعراء الحب فيكسرون آلة لهوهم وطربهم ، ويهرقون بقية خمرهم ، ويلمون من طرق الملاح شباكهم ،واما شعراء القوة فيخرجون من المعمعة شعثاً غبرا ويلقون سلاحهم ، وينقلب هؤلاء وهؤلاء حكماء.

ولكن ابراهيم طوقان رحل عن هذه الدنيا في مقتبل العمر ، في سن أبي فراس الحمداني،وسن ابن هانيء الاندلسي قبل أن يدرك الدور الاخير من أدوار الشعراء . وان لم يقته في أواخر حياته أن يرى من الدنيا ما تشمئز منه النفوس ترى لو فسح له في الاجل فماذا كان يقول؟ اما وقد مثل صاحبيه سليمان والمتنبي في دور القلب ،فلو فسح له في الاجل لقال مع المتنبي :

وما الدهر اهل ان تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه الى النسل

القدس — خليل السكاكيني

---

* حديث ألقي في نادي الضباط السوري بدمشق

العقول والنفوس من ابنائها، محروسة من هذا العنصر الرئيسي من عناصر الحياة الذي يدعى مرحاً، فاحكموا بالله : او ليس مستغرباً ان تكون دمشق المدينة الشعرية ذات الطبيعة الغناء، والمحيا البسام الضاحك، دمشق التي تطفح بالبهجة والحيـاة ، وتفيض بالرونق والبهاء، ابعد ما تكون عن المرح، لان التناقض القائم بين طبيعتها ومجتمعها قد فرق بينهما وفصل بعضهما عن بعض ؟

وان اتفق وانتشر فيها لون من الوان المرح، فهو لا يلبث حتى يتلاشى اذ يقوم ابداً لمحاربته فريق من اهل العبوس ، اولئك الذين يأبون الا تشويه وجه الحياة بتقطيبهم، ويؤثرون ركود الموت على نشاط الحياة، يقوم هذا الفريق من الناس، متذرعاً بالحجة التقليدية البالية حجة صيانة الاخلاق من الفساد والتدهور، ويدعون بطمسهم هذا اللون، حماية الشبيبة من شره ، ولا يخافون عليها ان تعميهـا ظلمة الكمد التي يبغون دفعها اليها .

وقد يكون من عجائب الامور ان يعتبر هـذا الفريق من الدمشقيين، وذلك لغاية معينة في نفسه، ذلك الطراز الجاف العقيم من الحياة مثلاً اعلى للحياة الطيبة الصالحة ، فيتخذ منـه مذهباً ، ولكن العجب العجاب ان الآخرين الذين يخالفون وجهـة النظر الشاذة هذه، وهم يؤلفون اكثرية ، يراعون مع ذلك تعاليم المبدأ التي بنيت عليها وجهة النظر هذه، ويمحون بصورة رهيبة هذا النحو من حياة العبوس مع انهم يدركون ان هذا اللون القائم من الحياة، لا يكون خطراً على حياة الفرد فحسب، حيث يهدده بالانكماش، ويقوده نحو العزلة النفسية، انما هو يكون خطراً ابعد مدى واوسع نطاقاً : لانه يبلغ الصميم من حياة الامة، ويهددهـا في كل آن باسوأ مصير : ان حرمان الفرد والامة من المرح الصحيح – وانتم تدركون بلا ريب ماذا اعني بالمرح الصحيح – حرمان لهما ايضاً من العمل المثمر والجد الصحيح . وان شئنا اخضاع هذه الناحية الهامة من حياة الفرد والجماعة الى التحليل العلمي، نجد ان هذا النمط من الحياة يخالف نواميس الطبيعة، لايتفق مطلقاً مع سننها وقواعدها، فما هي يا ترى النتائج التي يحتمل نجومها ان وقع اختلاف ما بـين الوضع القائم وبين ما فطرت عليه الطبيعة البشرية من ميول ؟ بل اية نهاية هي نهاية الوضع الاجتماعي الذي يأبى الاعتراف بنواميس هذه الطبيعة، ويذهب مذاهب شتى في قمعها واخماد حيويتهـا ؟ لا ريب ان اهم النتائج التي ستنجم عن هذا الوضع ستكون نزاعاً لا بل صراعاً عنيفاً ما بين هذا الوضع وبين الطبيعة البشرية، ولاريب ان الغلبة ستكون بجانب هذه الطبيعة .

ان اهل الكهف ما كادوا يخرجون من عزلتهم الى دنيا الناس حتى لمسوا الفارق الزمني الذي يفصلهم عنهم ، وادركوا ان هؤلاء الناس قد وعوا سنن الحياة فلم يخالفوها ، بل خضعوا لقوانينها، وعاشوا الحياة التي يلزم ان يعيشها كل ذي عقل واع وادراك سليم ، فعادوا الى كهوفهم لان سنة الحياة التي خالفوها تقتضي اليقظة والوعي والتجدد ، ولان الطبيعة تنبذ من ينبذها وتلطم حتى من يحاول محاربتها ، ولان كل وضع يخالف سنن البشرية ، ينجم عنه اختلال في التوازن الاجتماعي ، وضعضعة تصيب الصميم من جهاز الامة .

واذا نحن استعرضنا شتى الصور التي برزت من خلالها الوان المجتمعات في مختلف العصور ، نجد ان كلاً من هذه المجتمعات قد تفنن في ابداع اساليب المرح وخلق له اسباباً تتلاءم ولون البيئة التي انبثق منها هذا المجتمع، وطابع العصر الذي كان من شهوده .

ولقد تناولت كافة الفنون بالوصف والتصوير هذه الناحية من حياة المجتمعات ، فأرتنا الكثير من الوانها كما كشفت لنـا عن الاساليب المبتكرة او التقليدية التي كانت تجري عليها في ناحية المرح من حياتها ، كما ان كثيرين من الكتاب اتخذوا من المرح اسلوباً يجرون عليه في كتاباتهم وتآليفهم ، فنفذوا منه الى السخرية اللاذعة التي استعانوا بها على كشف ما بضمائرهم من لواذع الآراء والفكر وكلها تتناول بالنقد المر الخفي الاصطلاحات التي تواطأ الناس على اعتبارها القاعدة التي يجب ان تبنى على اسسها حياتهم وصلات بعضهم ببعض، كما تصدوا ايضاً بهذه السخرية الى الموازين الشاذة التي اتخذها هؤلاء الناس مقاييس للاشياء ، مع ان معظمها يتنافى مع الحقيقة والواقع .

ومن ينسى « بخلاء » الجاحظ ، هذه الرائعة الفنية التي كشفت عن كل خفية من خفايا النفوس المطبوعة على البخل ، كما صورت فصولها مختلف الطرق والحيل التي يمدها بها طبع البخل ويفتقها لها؟ ومسرحيات موليير ؟ او لم يضمنها هذا العبقري كل صورة مها خفيت معالمها ودقت ، من صور المجتمع الذي عاش فيه كما ابرز بتهكم صريح يخفي وراءه المـاً ومرارة ، تلك العقد النفسية والاجتماعية التي كانت تعتبر من اساليب الحياة المستحبة في عصر الملك لويس الرابع عشر ؟

والامثلة لا تنتهي اذا شئت ان اوردها لكم بأجمعها ، غير انها جميعاً تدل على ان المرح خاصة طبيعية من ادق خصائص الانسان،

وصفة من ابرز صفات النفس الانسانية ، فحمل النفس على كبت هذه النزعة ، وهي بحاجة قصوى الى ان تتجلى فيها ، ثم الحيلولة بين الانسان وبين التمتع بكل ما قد تغدق عليه من نعم الحياة البريئة ، قد يسبب لهذه النفس انفجاراً ينطلق معه ما كدس الحرمان فيها من شظايا وحمم .

فنبعة الماء التي سدت من دونها منافذ النور والهواء ، فحالت دون تفجرها من منبعها ، لتشق لنفسها مجاري وسواقي طبيعية في اخاديد الجبال ومزالق الاودية ، ان هـذه النبعة لا تلبث تحت التراب ان تغلي وتفور حتى يزيح ضغطها الكابوس الذي كان يحول دون اندفاعها وتدفقها .

ان مقدار نصيب الامة من المرح ، لهو من ادق مقاييس فهمها الحياة ، ومن ادعم البراهين التي تشير الى مبلغ اهتمامهـا بجديات الامور . اذ ان حياة الامم والافراد تبنى اسسها على قاعدتي الجد والمرح : فبالجد الصحيح يسمو الانسان وينشيء ويؤسس لا لنفسه بل لوطنه ومجتمعه وبالمرح يستعين على الجد ليسهل عليه المهمات ، ويمهد السبل ويبدد العثرات . فلا يكون الجد الصحيح الا حيث يكون المرح الصحيح الذي يخترق اعماق النفس فيجلو عن ادق مشاعرها ، ويصل اسبابها باسباب الحياة ليجعلها جزءاً منها ، ولا تكون حياة صحيحة الا حين يتوفر للامة نصيب كبير من ذلك الجد وهذا المرح .

اجل ! ان الحياة الصحيحة لا تتسع آفاقها ، وتمتد مداهـا وتصطبغ باللون الانساني بقدر ما تبرز خصائص الامة التي تغدق عليها من فيض نعمها ، ان هذه الحياة لن تتوفر في هذه الامة ما لم يتوفر فيها المرح ، ، بل ما لم ينبعث هذا المرح عذباً صافيـاً من نفوس خلصت من الشوائب وصفت من الاحقاد والضغائن .

ان بتهوفن العظيم نبي المحبة والسلام ، قد نشد من الحياة هذه الغاية المثلى ، وجعل منها المحور الذي دارت حوله موضوعات روائعه الخالدة . او ليس هو الذي ارسل هذه الصيحة حين قال : « اريد ان اجعل من آلامي وجراحاتي افراحاً ، اريد ان ابني منهـا سلماً تلتقي عند قمته الانسانية جمعاء ، وقد نبذت احقادها ونسيت ضغائنها واجتمعت على المحبة والسلام » .

اما بتهوفن فقد استطاع ان ينتزع الفرح من الامه وجراحاته ، كما استطاع ان يذهل النفوس ويسكرها ، واما الانسانية فانها ما زالت في اسفل القمة ، تتنازع وتتطاحن .

ان الحياة التي يشيعها المرح في النفوس ، هي حياة فياضة بالصفاء والحب والتسامح ، حياة قوية تبعدها عن الخمول ، وتجنبهـا خطر الاستسلام الى مقدرات الاحداث ، وتجعل منها نفوساً ايجابية تلبي مختلف دواعي الحياة وتقاوم قوى الشر والطغيان فيها ، كما تمنحها القدرة على احتمال المصاعب والتغلب عليها .

والفنون ؟ هل غرب عن بالنا ان لا حياة لها في ظل الضغط ، وانها تختنق في وسط نأت عنه معالم الحياة ؟ وان شتى الامكانيات الكامنة في غياهب النفوس قد تنطلق من معاقلها وتؤتي بخير كثير ، ان مهدت لكل انسان سبل الجد والمرح ، لكن تفسح المجـال لكفاءاته المخبوءة ان تظهر . على ان هذه الامنية لن تتحقق الا في ظل الديموقراطية الصحيحة التي لا تجعل فضل انسان على انسان الا بالكفاءة ، ولا تضيق على الشعب ، بل تحترم حق كل فرد من افراده بالحياة ، دون تفريق بين الجنس والمذهب ، وتوفر له وسائل العلم والثقافة ، ليأخذ منها بقسط وافر في جو من الحرية والمرح يوقظ فيه الوعي الصحيح ، كما ينهض بمستواه الفكري والاجتماعي الى المرتبة التي تجعله من مستحقي الحياة .

وانا واثقة من ان قادة جيشنا سيضطلعون بهذه المهمة الخطرة مهمة تأمين هذه الحياة التي تحدثت عنها الى الشعب السوري ، كما انا كفيلة بانهم سيحملون الى هذا الشعب الذي انبثقوا منه رسالة الجد والمرح كأحسن ما تكون رسالات الحياة .

او ليس الجيش من الشعب والى الشعب ؟ او ليس الدفاع عن حقوقه والسهر على مصالحه والذود عنها ازاء كل عدوان تداهمها به المطامع الاستعمارية ، من المهمات الرئيسية الملقاة على عاتقه؟ والجيش مفروض فيه ادراك المرح على حقيقته واساغة معناه ، لان مهمته جدية الى ابعد حدود الجد . فليجد اذن ما استطاع فجده ضمانة لامن الشعب وسلامه . وليمرح ما شاء فرحه كفيل بصيانة حقوق الشعب ومصالحه سواء كانت هذه الحقوق تتناول ناحية الجد من الحياة ام ناحية المرح .

فيا ايها الضباط ، ويا اولياء الامور ، ويا ايهـا الشباب المثقف :

اذا شئتم ان تكونوا شعباً يبرهن بوعيه وادراكه الصحيح على صلاحيته للحياة ، فافتحوا ابواب هذه الحياة على مصارعها لينفذ منها النور الذي يبدد عن النفوس الشوائب ، ويشفيهـا من الخمول ، ويطهرها من الادران . لانه يخشى عليها ان سدت من دونها منافذ النور ، ان يغشاها الظلام فتختنق في دياجيره .

دمشق

فلك طرزي

الجمال كلذة فلسفية ادبية

كثيراً ما تمد الفلسفة البناء الادبي وان خيل انها بعيدة عنه ، ولكن الصلة بينهما قد تبدو واضحة بارزة حتى نلمسها وقد تستخفي حتى لننكر مكانها من الادب . وهذه الصلة انما تقوى وتضعف بحكم الموضوع الذي من شأنه ان ينتج او يخلق الروح الادبية والفلسفية في تكوينه .

والجمال موضوع تدخل الفلسفة والادب في ابرازه ، بيد ان الفلسفة تجهد لتضعه في حيز المعرفة المبنية على حدود وقواعد . ومن الخير ان نتحدث عنه في الفلسفة قليلاً ، لننتقل فنتحدث عنه في الادب ايضاً ، بين يدي التحليل الاستنتاجي الذي نريد الخروج منه برأي ، في ايهما اقوى لمساً للجمال الفلسفة ام الادب ؟ . وايهما اشد تكييفاً وتبياناً له ؟ . وهل يتصلان بآصرة الموضوع دون ان يعمد الاديب او الفيلسوف الى ذلك ؟ هذا ما سنسعى اليه ، وهذا ما نود التحدث به الآن .

ان الوسيلة لتذوق الجمال في الفلسفة هي الحساسية ، وهذه الحساسية توجد في الانسان لذة قد تكون عميقة او غير عميقة تبعاً لتأثير صورة الجمال في الوجدان .

والحساسية عند الانسان لا تقف في تذوقها للجمال عند حد خاص ، بل انها تزداد وتختلف . لان الجمال يقوم على التنوع مع الدقة والروعة والتناسب ، وليست للجمال صورة مادية نلمسها ونقبلها كشيء حقيقي محدود ، بل هو يسمو بالحساسية مجنحاً بها في مذاهب من اجواء الخيال . والجمال لذة وهذه اللذة كما قلنا تختلف قوة وروعة في الوجدان ، ولقد تكون اللذة مؤلمة « اي ليست خيرة » ، ومع هذا فهي مبعث لعاطفة الجمال ، ومن هنا يبرز المبدأ الفلسفي القائل « الخير غير الجمال » .

قلنا ان عاطفة الجمال لذة ، وهذه اللذة قد تتشكل في الوجدان عند انسان ، بغير ما تتشكل به عند انسان آخر ، ولكنها تتحد كلها في انها مبعث للجمال .

وهذه اللذة ايضاً قد تسري في وجدان انسان ما ولا تسري في وجدان آخر ، فانا حين اتصور الشفق وجماله والروعة الذائبة فيه ، تتأثر حواسي بهذا المنظر وتتولد في نفسي لذة هي ما نعنيها بكلمة الجمال . ثم قد يمر بهذا المنظر انسان آخر ولا يستشعر شعوري به ، والعلة في هذا ، انني اقبلت على هذه الصورة بوجدان هادىء ، فسرت الي العاطفة الجميلة مع هذا الهدوء .

فان من المبادىء الفلسفية ان الهدوء احد الشروط المؤدية الى اللذة ، اما الاضطراب فليس من شأنه ان يكون وسيلة للذة ابتداء . وهذا لا يمنع انه قد يعقب استشعارنا بهذه اللذة اضطراب احساسي ، وانما يعني ان تأثرنا اولاً بعاطفة الجمال لم يكن في حالة اضطراب .

فالذي لا يتأثر بالصورة قد يكون مضطرباً او منصرف الذهن الى شيء يقصى عنه ايجاد اللذة للجمال الكامن فيها ، بما ولد عنده الاضطراب من جود في الوجدان . فالجمال لا تكتمل صورته لدى الانسان ، الا اذا كان الذهن خالياً كي يتشبع بمعناه .

هذه بعض من عناصر الجمال وصفاته الفلسفية ، مسرودة في صورة بسيطة ، وللجمال في الفلسفة انواع وهي :

ا – الجمال الادبي كانكار الذات مثلاً ، وهو يشمل كل الافعال الانسانية .

ب – الجمال المطلق (غير المحدود) وهو اقدس واروع انواع الجمال .

ج – الجمال الطبيعي كروعة الغسق او الفجر اي جمال الطبيعة الصامتة .

د – الجمال الخيالي وهو ما يحصيه الادراك ويكونه الذهن كالابتكار والاختراع مثلاً .

اما الفنون الجميلة كالنحت والموسيقى والرقص الايقاعي والشعر ، فهي صور « نوعية » من الجمال . فالموسيقى وهي – بوق الجمال – تذيب في انغامها العواطف لتجريها لذة في الوجدان بتأثير جمالها . وكذلك الرقص الايقاعي – وهو تمثيل الجمال – يخيل في حركاته لذة تنبعث .

فهذا الجمال كما تصوره الفلسفة نرى فيه دون ريب لوناً ادبياً ، يجعلنا نطمئن كثيراً الى ان تصوير الجمال الادبي يتصل في اخراجه بالمعنى الفلسفي في قصد وغير قصد .

والجمال في الادب – فلسفياً – جزء من فلسفة الجمال ، وان استنكر شأنه الادباء الذين يرون الجمال في الادب اعرق واروع واوسع مدى ، منه في الفلسفة ، بل انه يتناول

ثقافـــــة البـحر المتوسط

بقلم عبد اللطيف شراره

✱

بين يدي الآن كتاب «البحر المتوسط» للكاتب الالماني الشهير «اميل لدفيج» يدرس فيه تاريخ هذا البحر، ويبحث المدنيات التي قامت في مختلف شواطئه، ويقارن بينها وبين غيرها من المدنيات التي نشأت في البقاع الاخرى من اديم الارض، محاولاً ان يوضح ما يراه في امر ذلك البحر ومصيره.

والبحر المتوسط - كما يتضح من دراسة لدفيج - معجزة جغرافية، حين نقيسه بغيره من بحار الارض، فهو فريد في مناخه، فريد في شطآنه، فريد في صغره وعظم شأنه، ولذلك جاء عبقرياً في تاريخه، سيداً فيما انشأ وبنى من حضارات، فاذا استرعى انتباه المؤرخين والباحثين في الشؤون الانسانية، فلانه تفوق بميزات وفضائل جعلته الينبوع الذي تفجرت منه الفنون والمدنيات...

ازاء هذه الفضائل المتميزة البارزة، وقف بعض المفكرين في النصف الاول من القرن العشرين ينظرون الى البحر المتوسط كوحدة جغرافية مستقلة حتى اذا استقامت لهم هـذه النظرة ونهضت لهم ادلتها في وقائع التاريخ ومجرى الحوادث رجعوا الى تلمس تلك «الوحدة» في شؤون الثقافية وطرائق التفكير ومعالم المدنية، فلم يعدموا من الوقائع والآثار والحوادث ما يؤيد ظنونهم - وفي التاريـخ متسع لكل ظن - ويشد ازر تفكيرهم. وهكذا... نشأت فكرة «الثقافة المتوسطية».

وكان مما ساعد على نشوئها وظهورها بالمظهر «المقبول» ابحاث «رينان» وتين الفرنسيين الذين ربطا الثقـافة والفكرة القومية بالجغرافية اي بالارض، وبالتالي، بما نسميه «الوطن» فاذا اعتبرنا، نظرياً، ان حوض البحر المتوسط في نصف دائرتـه الاول الذي يشمل جنوب اوربا كله، ونصف الدائرة الثاني الذي يشمل غرب

فلسفة الجمال في موضوعه.

نعم ان الادب في شكله وصورته شيء مستقل عـن الفلسفة، بيد انه متصل الموضوع بهـا، فاحدى صور الادب كالجمال غير متصلة ظاهرياً بالفلسفة ومتصلة بهـا موضوعاً. فمثلا انكار الذات او الايثار - الذي هو اقوى معـاني انكار الذات - والوفاء عند اصحـاب الفلسفة الواقعية صور ادبية جميلة، وهي في موضوعها - فلسفياً - الوان من الجمـال الادبي.

واكثر ما يبنى الجمال في الادب على العاطفة كالشعر الغزلي، وهو من الجمال الخيالي فلسفياً.

وعلى كل فالجمال في الادب عاطفة وروح واحساس وروعة، فقد يكون الاخلاص صورة جميلة عند الاديب، كما قد تكون حياة المجانة عند انسان ما، لوناً من الوان الجمال ما دامت اللذة تنبع منها، فكل ما يتسرب الى النفس لذة فهو جمال.

ان اهم ما يمتاز به الجمال في الادب انه يأتي بعد حبنـا لشيء ما، وهذا الحب يجعلنا نصوره تصويراً رائعـاً. فآلام فرتر مثلا جميلة، لان جمالها مكتسب من الفيض العاطفي الذي تجـاوبت اصداؤه في جو «جوته» المعنوي، فنبعت نفسه المتأثرة باللذة، بهذا الجمال الذي قد تنطفيء شعلته في قلم آخر.

اسيا (تركيا وسوريا وفلسطين) وشمال افريقيا – اذا اعتبرنا هذه الاقاليم التي تتصل كلها بالبحر المتوسط «وطناً» واحداً ، كان حتماً عليها ان تكون ذات ثقافة واحدة !!

وجاء الموقف السياسي يدعم الناحية النظرية من هذا الموضوع فان فرنسا، وهي الدولة الاستعمارية ذات المصالح الكبرى في حوض المتوسط اعتنقت تلك الفكرة حين وجدت فيها ما يخدم سياستها ويعزز كيانها المادي والادبي ، فأقطار المغرب العربية (تونس ، الجزائر، مراكش) واقعة كفرنسا على شاطيء المتوسط في جانب، خاضعة للسلطة الافرنسية في الجانب الآخر ، فلفرنسا حينئذ ، ان تنزع عن هذه الاقطار سمتها العربية وتبدد عناصر ثقافتها الخاصة ، وترمي بهـا في احضان الثقافة المتوسطية الموحدة اي الفرنسية بتعبير آخر .

والى جانب الموقف السياسي نجد موقفاً روحياً بالغاً في دقته ، وهو الاتجـاه الديني والمذهبي على الوجه الاصح ، فان الدول الكاثوليكية الكبرى : فرنسا وايطاليا واسبانيا تحتل من حوض المتوسط جزءاً هاماً قد يكون من الوجهة السياسية اهم اجزائه ، فالمذهب الديني هنا يدعم الجغرافيــة ويؤيدها فيما توحي به من افكار، وكما جمع المتوسط هذه الاقطار مناخياً وجغرافياً ، فالدين يجمعها ايضاً ويؤلف بينها روحياً .

وليس المناخ والمذهب وحدهما يبعثان على تأييد «وحدة المتوسط» فحسب ، وانما يضاف اليها العامل الثقافي ايضاً ، ذلك ان فرنسا وايطاليا واسبانيا تستقي جميعهـا من معين واحد ، وتصدر عن اساس فكري واحد هو « الثقافة اللاتينية » .

نستطيع اذن ان نلخص العناصر التي تعاونت على نشوء فكرة « ثقافة البحر المتوسط » واظهارها ، كما يلي : ١ – ربط الثقافة بالمناخ . ٢ – وحدة المتوسط الجغرافيــة . ٣ – موقف فرنسا السياسي . ٤ – الكثلكة . ٥ – الثقافة اللاتينية .

والفكرة في جملتهـا ، مبدأ وغاية ، تصون مصلحة فرنسا كامبراطورية ، وتدعم الكثلكة كمذهب ديني ، وتزيد في غنى اللاتين كاصحاب ثقافة . فما هو نصيبها من الصحة العلمية ؟ ؟

– ١ –

اما ان حوض البحر المتوسط وحدة جغرافية فهذا ما لا يصح في ميزان من الموازين ، ولا يبنى على قاعدة من القواعد ، لاننا نضطر عند الاخذ بهذه الوحدة او الاصطلاح عليها ، الى تفكيك سائر الوحدات الجغرافية المعترف بها – علمياً لا سياسياً – فيصبح شبه جزيرة ايبريا (اسبانيا والبرتغال) منقسماً بين المتوسط والاطلانتيك، وما هو في الحقيقة بمنقسم ، وتصبح اسبانيا الشرقية رغماً عنها اوثق صلة بسوريا من صلتها بحدودها الغربية التي تفصلها عنها بضعة عشر كيلومترات ، تقطعها بالقطـار او بالسيارة . وما يقال في سوريا واسبانيا يقال ايضاً في فرنسا والجزائر ، وفي ايطاليـا وطرابلس الغرب ، وفي مصر واليونان . . .

على اننا اذا نزعنا عن البحر صفته القديمة كحد طبيعي بـين قطرين او بلدين ، جاز لنـا من طريق اولى واصح ان ننزع هذه الصفة عن الجبال والانهار ، وبذلك تتداخل اوطان الامم فيما بينها تداخلاً لا سبيل معه الى التفرقة بين امة وامة ، وبالتالي بين ثقافة وثقافة . ثم يصبح في الامكان ، واقرب الى المنطق اعتبار كل قارة على حدة وحـدة جغرافية مستقلة ، ويبقى البحر المتوسط موضعه لا يمكنه تأليف وحدة ابداً . . الا من مياهه واسماكه !

ونعود الى المناخ ، وهو «الموحد» الحقيقي بين الاقطار الواقعة على ساحل المتوسط ، فنجد ان تأثيره ضئيل كل الضآلة في حياة الفكر الانساني بحيث لا يصح اعتبـار الهواء العامل الرئيسي في تكوين ثقافة ما وتوجيهها . وقد اثبت علم الانسال بصورة قاطعة ان تأثير البيئة الطبيعية في قسمات الانسان ولونه ومميزاته الجسمية والنفسية ما هو الا حديث خرافة ، واقـام البرهان على ان الخلية الجرثومية هي التي تنطوي على الخصائص المميزة للاجناس البشرية ، فسواد الزنوج مثلا صفة اصيلة تلازم الجرثومة ، وما هو بعرض طارىء من اعراض المناخ الصحراوي وهجيرة الصحراء (١) . واذا كانت هذي هي ضآلة تأثير المناخ في حياة البدن ، فلن يكون هذا التأثير في النفس ابلـغ واقوى ، وان اساء الى النشاط في اغلب الحالات او احسن اليه في بعضها .

يضاف الى ذلك ان مناخ المتوسط يختلف بين قطر وقطر كما هو معروف لدى طلاب المدرسة الابتدائية ، فمناخ فرنسا غير مناخ اسبانيا ، ومناخ الساحل الافريقي غير مناخ الساحل السوري ، فهو خاضع لقرب البلاد وبعدهـا عن خط الاستواء ، متباين بتباين العوارض الجيولوجية من جبال ووديان وغابات في كل بلد . ويكون تبعاً لذلك، مزاج ابن مرسيليا غير مزاج ابن الاسكندرية ، ومزاج

---

(١) راجع الكتاب التالي : Principles of Genetics, by E. Sinnot, L. C. Dunn, D. R. Charles

ابن جنوى غير مزاج ابن حيفا ، وهكذا دواليك ...

واذا كانت الخطوط الرئيسية تتشابه في أغلب هذه المناطق من حيث الصحو والامطار والرياح ونمو النباتات والمواشي ، فان ثمة فروقا في التفاصيل تستتبع فروقاً كبرى في مآلها من رد فعل في الحياة الانسانية وطراز المعيشة وطرائق العمل والتفكير .

وكيف دار الامر ، لا يصح القول بوحدة جغرافية لحوض البحر المتوسط .

– ٢ –

غير ان الامر يبرز ويتضح حين نواجه البحر المتوسط من زاوية تاريخية ، ونتأمل الموجات البشرية التي تدفقت على شواطئه ، واذ ذاك نجد ان سكان هذه الشواطيء تنقسم الى فئتين متميزتين : العناصر الشرقية الجنوبية ، والعناصر الشمالية ، ونجد ان الاولى اعرق في الحضارة ، وأمد سببا الى الثقافة ، بينما الثانية قد نشأت بعد الاولى واخذت عنها :

والظاهر ان آسيا ، كما انتهت اليه الابحاث الجيولوجية ، هي مهد الانسان الاول ، والظاهر ان هذه البقعة التي يسمونها « الشرق الادنى » ، كما انتهت اليه النظريات العلمية الاخيرة ، هي المركز الذي توزعت منه الاجناس البشرية وانتشرت في اقطار المعمورة من بعد . والظاهر ان « الدور التاريخي الصحيح لم ينفتح في بلاد الرومان والاغريق الا حوالي ٨٠٠ او ٧٠٠ سنة قبل المسيح ، في حين ان شعوب اوربا الشمالية لم يبتدأ تاريخها ، على وجه التقريب ، الا حوالي التاريخ المسيحي »[٢] .

ارجع الان الى مصادر الحضارات الاولى التي تسلسلت منها حضارة اثينا في البدء ، ومن بعدها حضارة روما ، تجد بابل في الجانب الايمن ، ومصر في الجانب الايسر ، وفينيقيا بينهما ، وجميعها نشأت عن الموجات السامية التي وفدت على هذه البلاد من شواطيء شبه الجزيرة العربي[٣] . وقد عرفت هذه الجزيرة قبل انتشار قبائلها في الامصار المجاورة — فقد كانت اخصب مما هي اليوم — ألواناً من الحضارة لا تزال مطموسة مجهولة في اكثر معالمها ، وليست مدنيات سبأ ومعين وحضرموت وقطبانية التي كشفت الحفريات بعض آثارها الا دليلا ساطعاً على اصالة الحضاره في الجزيرة العربية[٤] . فكان العمالقة والهكسوس في مصر ، وسرجون الاول وحمورابي في العراق ، والكنعانيون في فلسطين عوامل التمدين في هذه المناطق قبل المسيح بثلاثين قرنا فما بعد ...

وما ان استقر المقام بهذه القبائل في سوريا ومصر حتى اندفعوا منها الى سائر البلدان المجاورة ، فانشأ الفينيقيون قرطاجة ، وتوسع العمالقة والهكسوس على ساحل البحر الاحمر داخل افريقية ، كما توغلت موجة الساميين الشرقية في جبال الموصل وبلغت في فتوحاتها حدود البحر الاسود حيث اتصل بهم الاغريق في مستقبل حضارتهم .

استمرت هذه الموجات بين مد وجزر ، تقوى تارة وتضعف تارة الى ان تدفقت آخر موجة عربية بعد الحركة الاسلامية على القسم الاكبر من سواحل المتوسط . وكانت اعمق ما تكون اثراً هذه المرة في سورية وشمال افريقيا . بيد ان اثرها الثقافي في صقلية واسبانية وبالتالي ، في اوربا كلها ، باق لا يمحوه زمن .

وبذلك نجد ان انتشار الثقافة في حوض المتوسط لم يكن ليتم الا على يد الموجات السامية التي انبعثت اول ما انبعثت من شبه الجزيرة العربي ، او من المناطق القريبة منه ، المحاذية له ، المتأثرة به . فالتاريخ يشجب القول بنشوء ثقافة اصيلة في المناطق المتوسطية ، بل هو يؤكد بوضوح وصراحة ان حوض المتوسط الاوربي مدين بحضاراته وثقافاته للوافدين عليه من الساميين واعقاب الساميين !

– ٣ –

ثم ... ما المقصود من كلمة « ثقافة » ؟

— الثقافة في جوهرها موقف روحي خاص يتخذه الانسان حيال الحياة والكون والناس . وهي في مظاهرها اللغة والعلم والفن والفلسفة مجتمعة بكل فروعها في حيز فكري واحد ، فلو جئنا نبحث هذه المظاهر الثقافية عند شعوب المتوسط لطال البحث وما انتهى ، اذ لا نهاية له في الحقيقة .... ولكن يمكن الاكتفاء باللغة لانها ، فضلًا عن كونها تعبيراً وافياً عن روح الامة التي تتكلم بها ، تضم سائر المظاهر المذكورة وتشتمل عليها .

ها نحن نشهد ونسمع ونقرأ ان شعوب المتوسط تنقسم بحسب ألسنتها الى اصول ثلاثة : اليونانية واللاتينية والعربية ، فهنالك اذن ثلاث ثقافات تبعاً للغات الثلاث المحكية القائمة ، ولا يجرح في صحة هذا التقسيم وجوداً وقيام لغات سابقة كانت من قبل منتشرة في هذه البقعة او تلك من شواطيء المتوسط كالفينيقية في لبنان ،

---

(٢) ما يرز في كتابه : « تاريخ العالم القديم » .
(٣) بريستد في كتابه : « اشراف على العالم القديم » .
(٤) دائرة المعارف البريطانية مادة « عرب » .

والسريانية في سورية والهيروغليفية في مصر لان دليل الحياة في لغة ما، هو حياتها، فاذا اندثرت كان اندثارها دليلا على سقمها وضعفها: ذلك من البدائه!

ولو كان هذا الجرح ذا قيمة في الحياة الثقافية، او ذا أثر في كيان الامة لوجب على سكان اميركا اللاتينية ان يهجروا لغتهم الاسبانية الراهنة وان يعودوا الى اللهجات القبلية البالية التي كانوا يلهجون بها عهد الطوطمية محافظة على ثقافتهم الاصيلة!! ولكن الامة بجميع مظاهر حياتها واقع اجتماعي، وليست نظرية فلسفية، فلن يفيد التفلسف في هذه الاشياء فتيلا...

وهناك جرح آخر لهذا التقسيم، وهو ان العرب فرضوا بالقوة، ابان سطوتهم، ثقافتهم على الامم التي اخضعوها بعد الموجة الاسلامية فاضطرت شعوب المتوسط — ومنها اهل افريقيا الشمالية — ان تذعن للامر الواقع وتنبذ مكرهة عاداتها الاولى، وان تأخذ بلغة الفاتحين وعاداتهم، ويخلص الجارحون من ذلك الى القول باحياء الثقافات الاولى واللغات المندثرة طالما ارتفع الضغط وضعُف العرب!!..

هذه الدعوى مردودة ايضا لان «التسامح» او «الرفق» اخص خصائص الطبيعة العربية في معاملة الغير، ولا حاجة الى الاسهاب في تقرير هذه الناحية، وكل ما يمكن الاشارة اليه في موضوعنا هو ان انتشار العربية في القرون الوسطى يشبه انتشار الفرنسية في القرن الثامن عشر، او انتشار الانكليزية في عصرنا الحاضر، اي نتيجة تفوق الامة بتعبير آخر، في ميادين العلم والسياسة والاجتماع لا اكثر ولا اقل، فكانت الشعوب الاسيوية والاوربية تقبل بل تتسابق على تعلم اللغة العربية كما تقبل اليوم على تعلم الانكليزية دون ادنى ضغط مقصود يقوم به اصحاب اللغة انفسهم.

فاذا اردنا تصفية الموقف، نجد بعد كل حساب، ان حوض المتوسط يحتوي على ثلاث ثقافات متميزة: اليونانية واللاتينية والعربية.

— ٤ —

هذا من حيث المظهر، اما من حيث الجوهر، فان القائلين بثقافة متوسطية يحسبون او يعتقدون على الاصح ان انتاج العرب الثقافي هزيل ضئيل حين نقارنه بانتاج الاغريق القدماء، وآباء الكنيسة في العصور الوسطى، وقادة الفكر المحدثين، وينتهون من هذه الملاحظة الى الغاء العربية من لائحة الثقافات العالمية الهامة، ويقتصرون على الاغريقية واللاتينية. ومذ كانت الحضارة اليونانية قد استنفدت كل ما في روحها — كما يعبر شبنجلر الالماني — وأصبحت قاصرة عن اعطاء جديد في عالم الفكر، لم يبق غير اللاتينية على شاطىء المتوسط في نظرهم!

واللاتينية في لغة الثقافة الروحية تعني «الكثلكة» لان مجدها الادبي والمادي قام على اساس من هذا المذهب الديني، فقد استلهمته فنونها وادابها وفلسفاتها من عهد توما الاكويني والقديس اوغسطين الى دانتي الى بسكال الى شاتوبريان الى ادباء الاسبان جميعهم منذ تقهقر العرب عن الاندلس الى يومنا هذا، فضلا عن روائع الفنون التي انتجتها عبقريات رافائيل وميكلانجو وليوناردو دافنشي... وغيرهم.

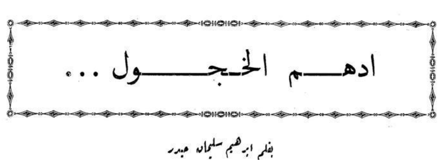
والواقع ان الثقافة العربية مقصرة في هذا المضمار، ولكن لا على النحو الذي يفهمه به شعوبيو هذا العصر تقصيرها، وانما هو ضرب من الاتجاه الفكري جعل الايطاليين ومن تأثر بهم بعدئذ، يتفوقون، عند انتشار النصرانية واختمارها، في التعبير عن المعاني الروحية والدقة في تصورها وتصويرها. ويجب ان لا ننسى ان نهضة اوربا في ذلك العهد، عهد دانتي، تأثرت الى ابعد حد، بالحضارة العربية في الاندلس، فكان تقدم الفن والفكر، نتيجة زواج الروح العربية بالحياة الاوربية.

— ٥ —

لم يبق من مقومات الثقافة المتوسطية غير الناحية السياسية، وهي التي تحدو بفرنسا كدولة مستعمرة لا كأمة غنية بالروح راقية، الى اقرار هذه الفكرة والاشادة بها وتفضيلها، حتى ذهب بعض مفكريها المحدثين — واظن انه فاليري — الى جعل الوضوح ابرز خصائص الثقافة المذكورة، وذهب آخر الى ان «المزاحمة» او «روح التنافس» هي التي تسيطر على ثقافة المتوسط...

غير ان ثقافة ليست ذات تربة جغرافية معروفة، ولا هي مرتكزة على اساس من تاريخ، ولا عبرت عن نفسها بلغة من اللغات، ولا رجحت في ميزان الدين، ولم يبق ما يحفظها غير موقف سياسي حرج، لا تكون طويلة العمر، بل تعيش خيالاً رمزياً في ذهن شاعر رمزي يحتاج دائماً الى من يشرح له خياله واقواله كلما تخيل «معنى» او قال بيتاً...

صيدا — عبد اللطيف شراره



بقلم ابرهيم سليمان حيدر

✯

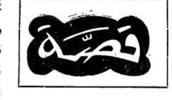
فلما تجد من يكبت ما يجيش في صدره من عواطف ويحبس ما يحز في قلبه من ألم ، فلكي يسري عنه بعض الشيء عليه ان يفتح صدره لصديق يأمن جانبه او خدين يصطفيه . فاجيشان العواطف في الصدر وحز الالم في القلب ضغط عنيف .

وكان ادهم من اولئك القلائل الذين يؤثرون كبت عواطفهم ودفن حبهم على ان يصل الى الغير ، وان كان ذلك يقض منه المضجع ويبلبل منه الفكر ، على انه ما وطد العزم يوماً على مفاتحة صديقه جميل – المصطفى عنده دون جميع رفاقه – الا وشرع هذا يسرد قصصه الغرامية ومغامراته مع الفتيات وجراته عليهن حتى الوقاحة فينكمش ادهم على نفسه ويخلد الى الصمت .

بماذا يحدث صديقه ؟ بمغامراته ؟ وليس عنده منهما شيء . بجرأته عليهن ؟ وهو لا يجرأ ان يرفع بصره الى احداهن . . ليس عنده ما يقول الا انه يحب ، وحبه هذا سر لم يشاطر به احداً سوى مرآته الصغيرة وقرطاسه الابيض ، فنصيب المرآة منه اشد اللوم واشنع التقريع ، ونصيب القرطاس ارق العواطف واسمى الغزل .

فلطالما وقف امام المرآة يحدق فيها بحاجبين مقطبين وبعينين ينبثق الاشمئزاز منهما ، وبفم مزموم كفوهة كيس مربوط لا ينفرج الا عن صك اسنان او سخط اوآهة ، وكثيراً ما تتوتر عضلات يده فتتكتل الى قبضته كالدبوس صلابة ثم يرفعها بنزق وعصبية ويلطم جبهته العالية . وود لو كسر المرآة وتخلص من رؤية وجهه ، وكيف يحطمها والحاجة اليها ماسة ، فهي تعينه على حلق ذقنه كل صباح وما اشد كرهه للقيام بهذه العملية الشاقة كل يوم ! ولكن هي الحياة الجامعية تقضي بذلك فلا يجدر به وهو طالب في الصف المنتهي في الجامعة ان يتعرض للنقد . وود لو كسر المرآة هربا من رؤية وجهه ، ولو انصف لما ود ذلك . فالعلة لا في الوجه ، فهو – وان غارت عيناه فيه بعض الشيء ، او قصر انفه وعرضت نافذتاه او تخللت اسنانه فجوات ، او طال شق فمه وغلظت شفتاه – لا يبعد عن الوسامة ولا ينفر الرائي . فقد برهن هذا الوجه مراراً ان له عند بعضهن حظوة وعند جميع معارفه صداقة . بيد ان العلة في نفسه ، في تلك النفس الخجول التي تورّد الوجنة لادنى امر ، وتتقاعس عن القول والعمل لاتفه الاشياء . فلطالما حسبه استاذه بليداً كسولا عيا ، لانه لا يناقش في مواضيع الدرس شأن رفاقه بل يظل قابعاً في مقعده يرى ويسمع ولا ينبس بحرف الا اذا وجه الاستاذ اليه سؤالا ، وان حدث ذلك وكان هناك ما يقول تلعثم واخرج ما عنده بشق الانفس ، على انه مع هذا كله مرح بين رفاقه الذكور طلق المحيا واللسان يرمي النكتة تلو الاخرى دون عناء او تكلف ، فاحبه الجميع وراحوا يقصدون مجلسه .

والخجل هذا ، من اين تسرب الى تلك النفس مرهفة الحس وعشش فيها وافرخ ؟ فوالده رجل عنده من الجرأة الادبية شيء وفير ، واخوته ما لمست فيهم هذه الخلة ، وخاله شيخ بلدته وزير نسائها ، وما عرف احد من آله من اتصف بها . اذن فلا شأن للوراثة في خجله ، فقد تحدى بذلك (ماندل) وقانونه .



ولعلها التربية الوطنية . وهذه ايضاً لا تجيب ، اذ ان الوالد ربى بنيه على الجرأة والاقدام لا سيما ادهم فقد بلا مواطن الضعف فيه وراح يحاول اقتلاع هذه الخلة من نفسه ، فبمناسبة او بدونها كان يحضه على القاء شيء من محفوظاته المدرسية امام جمع من ضيوفه

وان تعذر ذلك امام اهل بيته . ولقد افلح بعض الشي اذ انـه استطاع اخيراً ان يدفعه الى الكلام بين الناس .

ولعل لمولده شأناً في ذلك، فقد شقت عيناه للنور قبل الحرب العظمى الاولى ببضع سنين آن اجتاح بلدته وباءان. ففتك بكثير من انسبائه وذويه وفي يقيني ان الهلع الذي احدثه (الجدري) في نفس الام قد ترك آثاره في الجنين ادهم ، و كثرة المصابـين بالهواء الاصفر (الكوليرا) قد روع الام وزادها خوفاً على طفلها الرضيع ادهم الذي لا ريب في ان قسماً من هذا الخوف قد تسرب اليه مع الحليب وكيف لا تهلع هذه الام المسكينة ولا تروع وهي تشاهد يوميـاً ضحايا هذين الوباءين يحملون الى مراقدهم الاخيرة وبينهم القريب العزيز ... وهل تظن ان هناك قاطعاً فاصلا بين الخوف والخجل؟ ما اظن ذلك بل كل منهما يذوب في الاخر حتى يستعصي على اللبيب تمييز كل منهما .

قلت ان نصيب المرأة منه عسير، فكلما جبن عن اداء اي عمل او خجل من ابداء اي رأي وقف امامها مؤنباً نفسه ساخطاً عليها، اما نصيب القرطاس كان غير ذلك . فكلما انتهى من الكيل لشخصه وافرغ حمم بركانه جلس الى قرطاسه هادىء النفس قرير العين يوشيه باجمل ما في نفسه من عاطفة وازكى ما في فؤاده من حب ، فقد كان ولوعاً بالادب شعراً ونثراً ، شغوفاً بالفن تصويراً ونحتاً ، يصطفي من الادب اسماه وارقه ، ومن الفن اغناه واعمقه ، ولقد اغرم بالشاعر الهندي طاغور فدرس جل كتبه ، وكان لكتابه (البستاني) اعظم حظوة عنده ، فاتخذه كتابه المقدس ، لا تغفو له عين ليلا ما لم تقر بمطالعة بعض مقطوعاته ، ولا يكتحل جفناه صباحاً الا بترنيم قطعة منه ، وما هام بطاغور الا لما وجد في كتاباته من دعة ومسكنة واستسلام وابتهال مما وافق هواه واندمج في نفسيته ، فراح يبيح لقرطاسه النظر الى بنات افكاره المخدرات الابكار باسلوب هو اسلوب الهندي طاغور ، فلزاماً علي اذن ان اضـع بين يديك بعض ما على ذلك القرطاس لاكون منصفاً له وافياً حقه .

يخيل لي ، يا غرامي ، ان الزمن سائر على اقدام اعياها الكلل وانا على متنه اضطرم شوقاً للوصول الى اعتاب مقرك .

اما الوقت — مطيتي هذه — يتلكأ في زحفه وانا خائف من ان النار في تجعلني رماداً قبل ان اصل الى بابك .

عندئذ ماذا تفعلين ؟

هل تبللين بقايا جسمي بالدموع اللالآة ، ام ترمقينها شزراً وتسيرين في طريقك ؟

قصرك قصي مع انه تحت مرمى نظري .

الطريق اليه مظلم مخيف ، والسبل اليه وعرة ملآى بالاشواك ، لا وصول لي الى مقرك ، ولكن رغم ذلك ، اذا شئت ، اكون في لمحة بصر امام بابك مستأذناً بالدخول .

لو انك فقط تشيرين الي اشارة رضى لتوسلت الى النجوم ان ترقص على الطريق وتمنحه نوراً ابدياً .

لو ان شفتيك اللتين هما تويجات زهرة حيـاتي ، تلفظان فقط الكلمة ذات الثلاثة احرف (نعم) لتنازلت عن كبريائي ورميت بكل شيء عرض الحائط سافكاً آخر قطرة من العرق في تعبيـد الطريق وتزيينه بانواع الورد والياسمين .

ولكن ، واأسفاه ! ممتنعة هي الكلمة التي انشدها، وبدلا منها كلمة ذات حرفين (لا) ترف على شفتيك شديدتي الحلاوة .

*

لقد فهمت الان لم تومض عيناك غضباً عندما امد يدي متسولا الرحمة منك

لا لان فؤادك لا يخفق عندما يتردد صدى صوتي في اذنك .

لا لان عينيك لا تبرقان فرحاً عندما تقفان علي .

لا لاني متسول انشد صدقة على بابك .

ليس من اجل هذا كله ترفضين استقبالي في قصرك .

اني اعرف سبب تضليلك دائماً اياي ، ووضـع سلسلة من العثرات في طريقي اليك .

تفعلين ذلك كيلا ترتشفي آخر قطرة حب مني .

تضللينني خوفاً من ان تفقدي الحلاوة المكنوزة في الشوق والامل .

تزجرينني خشية ان تعرفي كل امر عني ، وان اصبح بعدئذ ظلا ثقيلا مملا اتعقبك ليلا نهاراً .

اني اعرف ، اعرف افكارك ، انك لا ترغبين في الحصول على ما تشتهين .

*

أهذا كل ما تخشين ؟

اذن فاطمأني يا مناي !

فكأسي دائماً ابداً مفعمة بالحب لا ينضب معينها ، فكلما ارتشفت منها زاد حبها نضارة وحلاوة .

ان مملكة الحب مترامية الاطراف لا حدود لها، ابداً تتجدد كنوزها ، وابداً تتغير مباهجها .

يا فؤادي ، لن اتيح لك معرفة كنهي باجمعه ، سأزودك كل آن ، بوجه من وجوه حياتي المتشابكة المتراصة ، سأبقيك تتحرقين لازالة الغموض الذي يكتنفني ، وسأقصيك عن سبر غور نفسي .

اجل ، اجل لن اسمح لك بمعرفة كنهي كله خشية ان يعتريك الوهن والملل آنذاك .

فاذني لي اذن ان آتي ، وسرعان ما تريني على بابك مستأذناً بالدخول .

*

ولو قدر له واذنت حبيبته ، فهل تظن انه يهرع اليها كما املى على قرطاسه ؟ لا بالله !

اجل فالحبيبة على قيد خطوات من غرفته الصغيرة التي تضيق بسرير وطاولة وكرسي ومشجب ، ولا يفصل نافذته عن نافذتها سوى حديقة اكتظت بالاشجار والعرائش انه يراها كل صباح ولو شاء كل آن ، فهي لا تبرح الشرفة او النافذة الا لحاجة . ترشقه بسهام لحظها تارة وتتلهى بحياكة الصوف اخرى ، وان في نفسها له ما في نفسه لها، تنتظر منه ابتسامة او بادرة سلام كي تردها له باحسن منها . غير ان الخجل — قبحه الله — كان يستولي على شعوره فيغض الطرف ويداعب كتابه .

وما كانت الفتاة خجولا مثله بل كانت اجرأ منه بكثير فقد حاولت مراراً ان تشجعه على مخاطبتها مرة بابتسامة وآناً بغمزة او اشارة ، ولكنه كان يتعامى عن ذلك معتقداً انها ما ابتسمت الا لاختها او لاحد ذويها في الداخل . وهكذا مرت الايام وكادت السنة الدراسية تنصرم وادهم يزداد هياماً بلمياء طاوياً حبه في فؤاده لا يبثه الا مرآته وقرطاسه .

وفي احد الاصباح ، وقد تضمخ الجو بكثير من عبق ازهار نيسان ، كانت لمياء تنحدر بسرعة على الدرج قاصدة جيرانهـا في الطابق الاسفل لحاجة عرضت فانزلق غطاؤها الابيض الهفاف عن رأسها وانحسر عن شعر فاحم تهدل عن كتفيها شلالا . وكان ادهم في نافذته وانظاره تلتهمها وقلبه يثب لكل وثبة من وثباتهـا ، فتوقفت بغتة وكأنها احست بنظراته والتفتت نحوه وابتسمت ، فافترت شفتاه عن ابتسامة حائرة ، لو انذر من قبل للجمها ولكنها خرجت شاردة عن نطاق وعيه فكانت رجعاً لابتسامتها ، ولما شعر بما اقترفت شفتاه احمر خجلا حتى اخمص قدميه . على ان الامر قد انتهى وظفر حبه من قرارة نفسه على تلك الابتسامة وتفاهما . ثم شفعت الابتسامة باشارة ثم بقبلة هوائية كانا يتبادلانها كل صباح ومساء . فخف عندئذ سخطه على المرآة وراح يملها باعذب الاماني ، ويعتز بأنه اصبح ككل اقرانه له حب وله فيه مغامرات ، واي مغامرات هي ! لم تقتصر الا على ابتسامة او اشارة او قبلة هوائية ، ولكن هذا شيء كثير على امثاله . فشطت به هذه المغـازلات الاثيرية الى الاغراق في التفكير والغلو في الاحلام ، فكان يجلس الساعات الطوال ساهماً على صخرة في الشاطىء محدقاً في البحر السحيق ويحلم ، واليك بعض ما كتبه اخيراً في ذلك .

كان الليل هادئاً ساكناً، والقمر متدثراً بسحابة مهلهلة، والهواء يهب عليلا لذيذا ، وزورقنا يشق مياه البحر .

حقاً لا اعرف كيف التقينا .

كنت الى عودك تحنين عليه وانا الى مجذافي اقسو عليهما ، فانبعث من اوتار عودك نغمات امتزجت بضربات مجذافي المتزنة وكانت هناك موسيقى علوية رقصت لها اشعة القمر على صفحة المياه الرجراجة .

ثم ارتفع صوتك بانشودة ، وما انتهى آخر مقطع منها حتى ارتدت الى اسماعنا من بعيد .

فقد خيل لي ان كل شيء في الطبيعة يشترك في ترجيعها — فالهواء بالزفير ، والامواج بالهدير ، والسمك خرج من الاعمـاق يترنح مصفقاً بزعانفه .

وبعد انتهائك من الغناء القيت بيدك خـارج الزورق وانت لا تقصدين ، وما ان شعرت بها المويجات حتى تسابقت اليها متدافقة كي تحظى منها بالقبلة الاولى .

همست : « اقترب يا حبيبي ! »

رميت آنذاك بالمجذاف جانباً تاركاً الامواج تسير قاربنـا وهرعت الى جانبك .

ظللنا ساكنين اخرسين وقتاً الله اعلم بمدته .

كان كل منا في ذراعي الآخر ، وقد ارتمى رأسك على صدري ، وحدقت عيناك في عيني تحاولان استشراف مكنوني ، وحامت شفتاي فوق شفتيك تواقتين لارتشاف رحيق السعادة منهما .

لا استطيع ان ادرك ما حدث بعدئذ .

كنحلة سكرى ضائعة في قلب زهرة كنا ثملين ضائعين .

وما كل ما حدثتك عنه الا حلم ، ولكن أمن الممكن ان

يحتفظ الواقع بذاتيته ام يا ترى يستحيل الى حلم حالما تطويه الايام ؟

*

رأى اخيراً ان يغامر ويقتحم خمار الخجل، فكتب على قصاصة ورق كلمات ثلاثاً متقطعة حروفها بهذا الشكل (م تى . اي ن . ن ج ت م ع) وطوى تلك الوريقة طيات عدة، ثم انتهز فرصة خروج لمياء من البيت ومرورها تحت شرفته فرمى بها اليها دون كلمة وارتد الى غرفته وهي لا تسعه ، ترفعه افكار وتحطه افكار كزورق حائر بين اللجج ، أيبقى في الغرفة منتظراً اوبتها ؟ ولا يعلم متى ؟ وهل بمقدور امرىء مثله ان يصطبر ؟ أيغادرها والى اين؟ . واخيراً قر رأيه على الذهاب الى مكتبة الجامعة وهي لا تبعد عنه كثيراً ، لعله يستطيع ان يقضي ردحاً من الزمن لاهياً بالمطالعة ، وهل تظن ان مثله يفهم ما يقرأ ؟

مشى وهو يعد العدة لجوابها . فقد طوح به الخيال انه تلقى منها موعداً ، وانه الان سائر اليها ، وانه قابلها وجلسا على صخرة من الشاطىء ، وان نزهته واياها في البحر قد تحققت ، ثم ارخى لخياله العنان – وهو شديد الجموح – فنسي نفسه حتى انه لم يلاحظ وميض البرق فحسب قصف الرعد صخب الامواج والمطر الذي انهال عليه رذاذاً رشته به اللجة عند تكسرها على صفحة الزورق ، مشى وهو لا يدري انه ماش على الرصيف والسماء ترميه بوابل من مطرها الغزير ، سار وهو سعيد بافكاره هانىء باحلامه ، ولم يفطن للحقيقة الا عندما سمع صديقه جميل يصرخ فيه : « ادهم ، ادهم ، ما بك ؟ أيعجبك الاستحمام وانت في ملابسك ؟ »

فانتفض ادهم من حلمه واسرع الى الحانوت حيث صديقه واجاب مموهاً : « اجل ، ألم تسمع بأن مياه نيسان تحيي الانسان؟» واراد ان يردف قوله بأنه قد بعث من جديد وانه يرى الحياة اليوم غير ما كان يراها بالامس، احب ان يبوح بحبه لصديقه ولكنه احجم عن ذلك ، وما احجم الا لانه لا يعرف مصيره فيه ، ولعله الفشل .

وكان هناك (بيليارد) فطلب منه جميل ان يلاعبه ، فصدع للطلب ولكن لم ينسه اللعب ما هو فيه ، وما انتهى الوقت حتى دفع ما عليه – وهو المغلوب طبعاً – ورجع الى غرفته مسرعاً آملا اوبتها راجياً استلام الجواب منها ، وفعلا كانت في النافذة تستطلع قدومه ، فما غابت لمياء طويلا بل عادت سراعاً واعدت له الجواب . وعندما لمحته لوحت له بالرسالة ، وسألته – بالاشارة طبعاً – كيف السبيل الى ايصالها اليه . وبعد اعمال الفكر تفاهم واياها على ان ترميها من النافذة التي تشرف على حديقة البيت القاطن فيه ، وهي ليست بحديقة بمعنى الكلمة بل قطعة ارض قفراء الا من بعض الحشائش البرية قد اهملت على ان يشيد عليها دار فيما بعد .

نزل ادهم الى الحديقة متجهاً نحو البقعة المنشودة وقلبه يخفق خفقات غير متزنة ، فكان يضرب ضربة ثم وقفة ، عدة منها ثم سكون ، وكأن لضربات قلبه شأناً بتسيير قدميه ، فعند كل ضربة يندفعان الى الامام وعند سكونه يقفان . والخجول كالجبان يظن ان وراء كل نافذة عيناً ترقبه وفي كل منعطف عذولا يحصي عليه حركاته وسكناته .

واخيراً وصل ، والحمد لله على سلامته ، فاطلت (جولييته) من عل ورمته بالجواب ، وما كادت الورقة تستقر على القاع حتى اطل رأس آخر من نافذة اخرى تحت تلك وصاح ساخراً : « الله ، الله ، التقطها ، التقطها ، فسوف ترى ! »

صعق ادهم عند هذه المفاجأة ، وما شعر الا وهو في غرفته كمن افاق من حلم مزعج .

ومن هذا العذول يا ترى ؟ هو خادمة الطابق الاسفل ، فقد حاولت مراراً ان تستأثر بحب ادهم ولكنها لم تنجح ، اذ ان الفتى كان عالقاً بهوى لمياء ، أيتدانى الى الخدم ؟ وكم من مرة شاهدها تغريه باشاراتها ، غير انه سخر منها وهزىء ، فاثار جفاه حفائظها وعضتها الغيرة لما اشتمت رائحة العلاقة بين الجبيبين ، فترصدتهما من وراء ستائر النوافذ حتى تمكنت ان تباغتهما .

خجول ! ايطوّح به الخجل والجبن فيترك الورقة مرمية على الارض شاهداً عدلاً على الفتاة ويختفي ؟ . . اجل لقد تركها هناك فحملتها الواشية وثيقة ناطقة تدعم وشايتها . وهكذا نالت لمياء من ذويها جزاءها واقصيت الى قرية في الجبل .

وكان ذلك آخر عهد ادهم بها ، فعاد الى مرآته يصب عليها جام غضبه وحجب بنات افكاره عن القرطاس .

بغداد ابرهيم سليمان حيدر

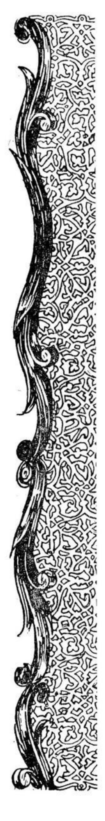


خلود

☆

اسمعي لي ، والدجى يحجب شخصي ، اتغنى
والهوى يحدق بي ريان مما اتمنى
كلما امعنت في انشاده ارهف اذنا
والمنى بين يدي نجواي جذلى تتثنى
يتلقين اناشيد الهوى لحناً فلحنا
ويكاد الحلم الخافق يهوي مطمئنا
ناشدا عينيك والدنيا معي ايان كنّ
ويكاد البدر يهتز لنا حتى يجنا
والدراري حوله يرقصن آحاداً ومثنى
والنسيم الرطب يجتاز اليّ الروض وهنا
حاملا من كل ما يبعث فيّ الروح معنى
فاتخذت الليل دون الاعين الخزر مجنا
وتزودت الهوى كل الهوى روحاً وفنا
واتخذت البدر كيلا اخطىء السدة خدنا
وتشوفت الى ابيات شعري ، أين هن ؟؟
فاذا البيت الذي اعبد في جنبيك يبنى
واذا البيت الذي اقطف من عينيك يجنى
واذا البيت الذي اهصر من عطفيك يثنى
واذا انت الى الروح من الشاعر ادنى
واذا الروح التي تخلد في روحك تفنى ...

الحوماني



من قصص الأقـدمين

بقلم
نور الدين بيهم
امين المخطوطات بدار الكتب الوطنية



الله يشهد

اضطر الاطباء ان يقطعوا رجل عروة بن الزبير من اثر ضربة دابة . ولما دعي الجزار اقطعها قال له نسقيك الخمر حتى لا تجد لها المآ فقال لا استعين بشيء حرمه الله .

وقبل قطعها دعا عروة اهله فباشر الجزار عمله وقطع كعبه ثم بدأ بنشر العظم ولم يسمع لعروة اثناء النشر غير ذكر الله ثم اغلي الزيت وصبوه على رجله موضع القطع فاغمي عليه من الزيت الحار ولما استفاق صار يمسح العرق عن وجهه ولما رأى رجله دعا بها وصار يقلبها بين يديه ويهزها امام الحاضرين قائلاً لها : « الله يشهد انني ما مشيت بك الى حرام »[1] .

الدنا ملك معلق بدواتي

صرف نظام الملك ثلاثين سنة في خدمة الملك الب ارسلان واجداده . وقد كان طيلة وزارته عماد الملك وركن السلطنة وقوامها وخادمها الامين المستقيم .

واتفق يوماً ان احد حفدة الوزير اتى ذنباً فشكوه الى الملك الب ارسلان فكتب هذا الى وزيره يقول : ان كنت شريكي في الملك فاخبرني وان كنت وزيري فتجب عليك طاعتي .

فأجاب الوزير للذين اتوه بالرسالة : قولوا للسلطان ان كنت ما علمت اني شريكك في الملك فاعلم انك مـا نلت هذا الامر الا بتدبيري .

ثم التفت الى من في الباب وقال : بلغوا السلطان عني «ان تاجه معلق بدواتي ومتى اطبقت هذه الدواة زال عنه التـاج ودك الصولجان »[2] .

(١) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لابن خلكان ج١ص٣٩٨-٣٩٩.

(٢) ابن العبري ص ٣٣٥ – ٣٣٦ .

حتى تكلمه الارض

قتل المهلهل التغلبي ولداً للحارث بن عبـاد وهو من سادات وشجعان وشعراء الجاهلية[3] فثار الحارث ونادى بالحرب وارتجل قصيدته المشهورة التي كرر فيها قوله « قربا مربط النعامة مني» اكثر من خمسين مرة . والنعامة فرسه[4] لم يكن في زمانها مثلها فأتوه بها فجز ناصيتها وقطع ذنبها وكان اول من فعل ذلك من العرب فاتخذته العرب سنة اذا قتل لاحدهم عزيز واراد ان يطلب بثأره .

فانتصر الحارث وأسر المهلهل وجز ناصيته واطلقه واقسم ان لا يكف ولا يعف عن تغلب حتى تكلمه الارض فيهم .

فأدخلوا رجلا في حفرة تحت الارض على طريق الحارث فمر بة الحارث فأخذ الرجل من داخل الارض يرجو ويسترحم ويستغيث بالحارث حتى يكف عن بني تغلب ويبقي عليهم . فطلبوا عندئذ من الحارث ان يبر بقسمه فبر بقسمه وعفى عنهم . وكانت قبيلة الحارث تحلق رؤوسها في الحروب ليعرف بعضهم بعضا . ولها « يوم تحلاق اللمم »[5] .

داود بن نصير الكوفي

شغل نفسه بالعلم ثم اختار العزلة والخلوة والانفراد فلزم العبادة وكان لداود ثلثماية درهم فعاش بها سنين عديدة ينفقها على نفسه وورث من امه داراً فكان ينتقل في بيوت الدار . كلما خرب بيت منها انتقل الى غيره . وفي هذه المدة قدم الكوفة محمد بن قحطبة ووجه اليه بدرة فيها عشرة الاف درهم وقال استعن بها على دهرك فردها فوجه اليه بدرتين مع خادمه وقال له ان اقنعت داود بقبولها فانت حر فمضى اليه فابى ان يقبلها فقال له الخادم ان في قبولها«عتق رقبتي » فاجابه داود وفي قبولها « قيد رقبتي »[6] .

وكان القاضي ابو زكريا الانصاري فقير الحال جداً وكان يجوع فيخرج ليلا يلتقط قشور البطيخ ويأكلها[7] فسخر الله له طحاناً تكفل له بالطعام والكسوة سنين[8] .

(٣) عده المرحوم الاب شيخو من شعراء النصرانية . ج ١ ص ٢٧٠ – ٢٨١ .

(٤) قاله ابن بدرون، الكتاب نفسه ص ٢٧١ .

(٥) العقد الفريد ج ا ص ١٧١ .

(٦) وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٢١ .

(٧) طبقات السبكي ج ٢ ص ١٦٢ .

(٨) معجم المطبوعات ص ٤٨٦ .

طاهر بن عبد الله الطبري

كان ثقة صادقاً اديباً ورعاً وله الشعر الحسن وذكر السمعاني في الذيل انه كان له عمامة وقميص بينه وبين اخيه اذا خرج ذاك قعد هذا في البيت واذا خرج هذا احتاج ذاك ان يقعد .

واذا غسلت هذه الثياب قعدا في البيت ، وتزرين حتى تجف الثياب[٩] .

امرؤ القيس

اختلف المؤرخون في اسمه فقيل جندح وقيل مليكة وقيل عدي . قال الشعر وهو غلام وكان يخمر ويشبب ويعاشر صعاليك العرب . نهاه ابوه فلم ينته فطرده فاخذ يتنقل باصحابه في احياء العرب يشرب ويطرب ويلهو الى ان بلغه مقتل ابيه وهو جالس للشراب فقال : «رحم الله ابي ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً لا صحو اليوم ولا سكر غدا اليوم خمر وغدا امر» فلم يزل حتى ثار لابيه .

وكان امرؤ القيس في اعمال دمشق . و«سقط اللوى» و«الدخول» و«حومل» اماكن معروفة في حوران ونواحيها[١٠]

ابو محجن الثقفي

طلب فك قيده ليحارب . حارب ورجع الى قيده

احد الابطال الشعراء الكرماء ، كان منهمكاً في شرب النبيذ فجلده عمر مراراً ثم نفاه الى جزيرة في البحر فهرب ولحق بسعد بن ابي وقاص وهو بالقادسية يحارب الفرس فكتب اليه عمر ان يحبسه فحبسه سعد عنده فالتمس ابو محجن من امرأة سعد (سلمى) ان تحل قيده وعاهدها ان يعود الى القيد ان سلم فخلت سبيله فقاتل قتالاً عجيباً ورجع بعد المعركة الى قيده وسجنه فحدثت سلمى سعداً بخبره فأطلقه وقال له لن احدك ابداً فترك النبيذ وقال : « كنت آنف أن اتركه من اجل الحد » . وتوفي باذربيجان او بجرجان[١١] سنة ٣٠ للهجرة .

داود بن علي

كان زاهداً متقللاً كثير الورع من اعاظم علماء عصره . قال القاضي المحاملي . جاء عيد الفطر فذهبت اهنئ . داود بن علي دخلت عليه واذا بين يديه طبق فيه اوراق هندبا وعصارة فيها نخالة وهو يأكل فهنأته وعجبت من حاله . وخرجت من عنده ودخلت على رجل كريم يقال له الجرجاني وطلبت منه معونة داود بن علي فقال لي الجرجاني ان داود شرس الاخلاق وجهت اليه البارحة بالف درهم ليستعين بها فقال للغلام قل للجرجاني : بأي عين رأيتني وما الذي بلغك من حاجتي حتى بعثت لي بالف درهم .

فقال القاضي المحاملي للجرجاني هات الدراهم فاني احملها اليه قال المحاملي : فاخذت الدراهم وجئت اليه فقرعت الباب ودخلت وجلست ساعة ثم اخرجت الدراهم وجعلتها بين يديه فقال : اهذا جزاء من ائتمنك على سره واستقبلك داخل بيته واطلعك على حقيقة حاله ، انا بامانة العلم ادخلتك الي ، ارجع فلا حاجة لي فيما معك من دراهم ودنانير[١٢] .

ابن المقفع والدين

عبدالله بن المقفع اول من عني بترجمة كتب المنطق اصله من الفرس ولد في العراق مجوسياً ولي كتابة ديوان المنصور العباسي وترجم له « كتب ارسطوطاليس » الثلاثة في المنطق وكتاب المدخل قتله في البصرة اميرها سفيان بن معاوية المهلبي .

قال الهيثم بن عدي جاء ابن المقفع الى عيسى بن علي فقال له قد دخل الاسلام في قلبي واريد ان اسلم على يدك فقال له عيسى ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس فاذا كان الغد فاحضر ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم ويصلي على عادة المجوس فقال له عيسى اتزمزم وانت على عزم الاسلام فقال ابن المقفع : « اني اكره ان ابيت ليلة بلا دين[١٣] » .

المستنجد بالله

في سنة ٥٦٦ توفي المستنجد بالله ابن المقتفي وكان من احسن الخلفاء سيرة مع الرعية ، عادلا ، قبض على انسان كان يسعى بالناس فاطال حبسه فشفع فيه بعض اصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة الاف دينار . فقال الخليفة انا اعطيك عشرة الاف دينار وتحضر لي انساناً آخر مثله لكي احبسه فاكف شره عن الناس[١٤] .

عبد الله بن ادريس

كان من اكبر محدثي وعلماء زمانه وزاهداً متعبداً تاركاً الدنيا . عرض عليه هرون الرشيد القضاء فرفضه بأنفة[١٥] وطلب منه

(٩) تاريخ الاعيان ج ١ ص ٢٩٣ .
(١٠) تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٠٦ .
(١١) قاموس الاعلام ج ٢ ص ٧٣١ .
(١٢) ابن خلكان وفيات الاعيان ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ .
(١٣) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٨٧
(١٤) مختصر تاريخ الدول ص ٣٧٢ .
(١٥) التهذيب ج ٥ ص ١٤٤ .

لرشيد ان يعلم ابنه فاجابه يمكن لابنك ان يحضر دروسي مع عامة الناس فقال له الرشيد : « وددت اني لم اكن رأيتك » فاجابه : « وانا وددت اني لم اكن رأيتك »(١٦) .

عائشة النبوية

كانت من العابدات الزاهدات وهي ابنة جعفر الصادق وكانت تقول : وعزتك وجلالك لئن ادخلتني النار لآخذن توحيدي واطوف به على اهل النار واقول « وحدته فعذبني » . توفيت سنة ١٤٥(١٧) .

وكانت احدى العابدات الخائفات تقول مخاطبة الخالق :

والله لئن عذبتني لاشهدن عليك الناس انني ما عصيتك ابدا .

فتوى

حنق المهدي العباسي والد هرون الرشيد على زوجته الخيزران ليلا وقال لها في سورة الغضب انت طالق ثلاثاً ان بت الليلة في مملكة ابي فلما سكن غضبه ووجدها براء من التهمة وان اجتياز مملكة ابيه حتى يصبح خارج حدودها يستلزم الايام والليالي الطوال استدعى الاعيان والفقهاء وعرض عليهم ارتباكه .

فقال له القاضي ابو يوسف يا مولانا تبيت الليلة في الجامع «وهذا بيت الله لا دخل له بحدود مملكة ابيك ولا ملك ابيك» وهكذا كان(١٨) . وبقيت الخيزران للمهدي .

شؤم طويس

هو عيسى بن عبدالله اول من غني بالمدينة غناء يدخل في الايقاع كان ظريفاً عالماً بتاريخ « المدينة » وانساب اهلها يجيد النقر على الدف وهو من اشهر المغنين والعلماء بصناعة الغناء في صدر الاسلام. وفيه المثل : « اشأم من طويس » لما يقال من انه ولد يوم وفاة محمد بن عبدالله بن عبد المطلب وفطم يوم مات ابو بكر وختن يوم قُتل عمر وتزوج يوم قتل عثمان وولد له يوم قتل علي(١٩)

سالم الشاعر المعروف بالخاسر

هو سالم بن عمرو بن حماد وكان متظاهراً بالخلاعة والفسوق والمجون ، وكان سالم من تلاميذ بشار وصار يقول شعراً ارق من شعر بشار وكان يقول بشار ان سالم يأخذ مني المعاني التي اتعب فيها فيكسوها الفاظاً اخف من الفاظي واني لن ارضى عنه ابدا ، فما زالوا يسألونه حتى رضي عنه وتوفي سالم سنة ست وثمانين ومائة .

وسمي سالم « بالخاسر » لانه باع مصحفاً واشترى بثمنه طنبوراً(٢٠) !! .

فرس الاصمعي

قال الاصمعي حضرت انا وابو عبيدة عند الفضل بن الربيع (وقيل عند هرون الرشيد) فقال لي كم كتابك في الخيل فقلت مجلد واحد فسأل ابا عبيدة عن كتابه فقال خمسون مجلدة فقال قم الى هذا الفرس وامسك عضواً عضواً منه وسمه فقال لست بيطاراً وانما هذا شيء اخذته عن العرب فقال لي قم يا اصمعي وافعل انت ذلك فقمت وامسكت ناصيته وشرعت اذكر عضواً عضواً واضع يدي عليه وانشد ما قالت العرب فيه الى ان فرغت منه فقال خذه فاخذته وكنت اذا اردت ان اغيظ ابا عبيدة ركبته اليه وكنت اقتصده اينما سار واركب فرسي واطارده امامه وكان يغتاظ من ذلك جداً(٢١) .

عمر بن محمد الازدي الاشبيلي

كان اماماً في علم النحو وكان عالماً فاضلا الا انه كانت فيه غفلة وصورة بله في الصورة الظاهرة ومن « مناقبه » انه كان يوماً على جانب نهر ومعه بعض كراريس يطالعها فوقع منها كراسة في الماء وبعدت عنه فلم تصل يده اليها ليأخذها فاخذ كراسة ثانية وجذبها بها فتلفت الثانية(٢٢) .

اتيتك لازداد بك ادبا

حكي ان الرشيد اراد ان ينظر الى ابي شعيب القلال كيف يعمل وكان ماهراً ، فادخلوه القصر واتوه بجميع ما يحتاجه من آلة العمل ، فبينما هو يعمل اذا بالرشيد قد اقبل ، فلما رآه نهض قائماً فقال الرشيد : دونك وما دعيت له ، فاني لم آت بك لتقوم لي وانما اتيت بك لتعمل بين يدي . فقال : وانا لم آتك ليسوء ادبي ، وانما اتيت لازداد بك ادباً . فاعجبه كلامه واجازه(٢٣) .

نور الدين بيرم

(١٦) التذكرة ج ١ ص ٢٥٩ .
(١٧) الدر المنثور ص ٢٩١ – ٢٩٢ .
(١٨) حضارة الاسلام ص ٥٢ – ٥٣ .
(١٩) الاغاني ج ٣ ص ٢٧ .
(٢٠) وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٨ .
(٢١) ابن خلكان ايضاً ج ١ ص ٣٦٢ – ٣٦٣ .
(٢٢) وفيات الاعيان ج ١ ص ٤١٣ .
(٢٣) اسرار الحكماء للمستعصمي ص ٩٦ .



في اعقاب الخريف

بقلم الآنسة سعاد عارف ابو شقرا

★

كنت في فترات ، اجلس طويلاً الى نافذتي ، اتطلع الى الفضاء ، فاذا الاوراق تتناثر في مهب الرياح ، فيثير انفراطها في خاطري شتى الافكار ، ويوقظ في نفسي رواقد الخطرات !!

واسرح النظر في الافق البعيد ، فلا اراه الا مربداً عابساً ، تطمس معالمه سحب سود ، تصارعهن رياح عابثة ، فيهولني هـذا المشهـد الكئيب المهيمن على طول الافق ، ويحرك نفسي منظر الطبيعة القاتم ، فتتراءى امام ناظري اطياف الهموم !

ثم انظر الى الجو ، طيلة النظر ، فاذا رياح اتخـذت من الفلك الشاسع مسرحاً لمجيئها وذهوبهـا ، واذا غيوم تتلبد تارة ، وتفترّ طوراً عن بعض بقع زرق في الاديم الشاسع ! وما هي الا دقائق حتى يغضب مليك الجو ، ويثور مزمجراً مهدداً ، منـذراً سحب السماء العابسة بساعات تفيض دموعاً . .

تلك ساعات هنيئة من ساعات الخريف في بلاد الجبل ، كنت اجلس فيها وانا اكثر ما اكون يقظة وانتباهاً ، متأملة تلك اللوحة التي رسمتها يد علوية ، فجاءت آية في الفن وآية في البلاغة . . عليها من الكآبة مسحة ، وفيها من الصمت ما يملأ القلوب والافكار آيات والحاناً !!

لقد كنت اسكن طويلاً الى لوحتك الناطقة ، ايها الخريف ! صامتة اجلالا لهذه الكآبة التي تغمر اوقاتك ، وتحولها الى ساعات ساهمة واجمة ، لا يقطع سكونها من حين الى حين ، الا عويـل الرياح ، او حفيف الاوراق المتساقطة !!

اتراني كنت آنس ، ايها الخريف ! الى هذه الاوقات الواجمـة التي ينطق شحوبهـا بالالم الراسي في قرارة نفسك ؟ وانا التي أفرّ من الكآبة ، لما بها من تناقض مع طبعي المرح ، ولما اعلم من أثرها المؤلم في النفوس والعقول ! ؟

ام تراني كنت اكبر هذا الوجوم وهذه الآلام البادية في كل منظر من مناظرك ، فاصمت احتراماً ؟ ولم لا ؟ ان الكآبة تحرك القلوب وتلعب باوتارها فيرسلن النغم الرقيق ، مبكياً حيناً ، ويائساً احياناً ! وتبعث الآهة المتقطعة فياضة بشتى الخلجات ! والانسان ان تألم ، أراد الفرار من آلامه ، ففكر ! وان تعذب ، طلب الخلاص من عذابه ، فعرف قيمة الالم ورثى لشقوة المعذبين ! وان صدمته هموم الحياة انصدع وتوجع ، وارسل عصارة افكاره وخفقات قلبه انغاماً تفيض بالذكرى ، او آيات تذهب حكماً او أصولا !!

أما اذا اسعدته الايام ، وغمرته بهنائها ، فقد ذهبت بقلبـه وضميره فتحطم الوتر الناطق ، واسكتت القيثارة الشادية ! !

انت ايها الخريف ، رمز الثورة بعد الهجوع الطويـل ، وانا اسكن لثوراتك ، واكبر هبوبك ونشاطك ! لكنك فصل الهزال بعد العافية ، وفصل الشحوب بعد النضارة . وفصل الموت للنبات بعد الحياة وفصل الفناء للازهار بعد الزهو والخيلاء في ليال بهيجة هنيئة ، مليئة بالمسرات .

تهذيب القوى النفسية

بقلم

الاب مرمرجي الدومنكي

☆

في القوى النفسية تناسق من الواجب مراعاته عند السعي في تهذيبها . فهناك قوتان منوطتان بالروح محضاً ، وهما قوة الادراك ، وقوة الارادة . وهناك قوتان اخريان ثانويتان مرجعها الى النفس والجسد معاً ، وهما المخيلة الموآزرة الادراك ، والشعور المساعد الارادة . وهناك اخيراً الذاكرة ، قوة اكتساب المعارف وحفظها ؛ فهي ايضا قوة ثانوية ، لكن مهمتها في غاية الخطورة للشغل العقلي

نتحقق ان المخيلة قوة ثانوية، اذا قابلناها بالعقل . فالعقل ينفذ الاشياء غائراً في اعماقها . المخيلة تعمل في ظاهر الاشياء دون ان تخرقها ابداً . العقل يدرك المجردات وغير الماديات . المخيلة تقف عند حد الحقائق العينية المحدودة والمحلية . اخيراً العقل يقارن ويحكم ويبت . مما لا قبل للمخيلة ان تأتيه . فهي خادمة ، بيد خدمتها ضرورية للعقل .

كذا القول في الشعور بالنظر الى الارادة . فالمشيئة روحية صرفاً . الشعور لحم ودم . الارادة حرة . الشعور مضطر . في وسع المرء صد الشعور عن التغلب عليه . لكنه يتعذر عليه منعه من التولد والحركة . ولهذا تبقى الاهواء مجردة ، طالما لا تبدي المشيئة عزمها الجازم . هذه هي سلطة الارادة على الشعور . فهو

انت ، ايها الخريف ، رسول الموت يذكرني كل ساعة بالفناء ، وانا في حاجة الى هذه الذكريات وهذه الملاحظات . ان الانسان — ذلك المغرور الضعيف — تذهب بلبه مباهج الحياة ، ويغزو نفسه الطمع فيهيم على وجهه في مشارد نفسه ، فلا يرعوي ، ولا يفكر .

انت تعبر بلسان الطبيعة في بيان ابق ، واسلوب متين ، ان لا قوة تدوم ، وان لا هناء يطول ، وأنا تسكرني آياتك ، مصادفة مني اذناً مصغية وقلباً واعياً !

ايها الخريف الحزين ! شاهدتك في هبوب الطبيعة وفي ثورة الرياح ، وفي دموع السحب وفي تناثر الاوراق ، وفي شحوب النبات وفي عبسات الاشجار ، فآمنت بجبروت الطبيعة ! ! وايقنت — وانا الضعيفة — ان القوة رمزك ، وهي منك . وانك تأتينا واعظاً ، ولكن تتركنا غير عابي، بنا . فانت لا ترقد عن عملك كما نرقد نحن في سبات عميق ، بل تهيب بنا : أن تحذروا ، وادرسوا دستور الطبيعة فسنتها نمو وتجدد ، وسنتكم نمو وهلاك ! !

ايها الخريف الجميل ! اترانا نفكر فيك آتياً كنت ام ذاهباً ؟ مقبلا ام مولياً ؟ وعلام التفكير ، ونحن تشغلنا امور المادة عن كل عمل خارج عن حدود المادة ، فلا يبقى لدينا من الوقت سعة لان نصغي الى آياتك ، تنزلها الطبيعة ، فتترنم بها الرياح مسبحة تارة مكبرة اخرى ، ويتجاوب صداها في الاجواء القريبة والبعيدة ، مردداً انات الرياح وعويل العواصف ، وكأن كل ما في الطبيعة يبكي منظر الارض الذاوي ، ويرى هذه النضارة التي مرت عليها يداك ، فالبستها وشاح الذبول والفناء .

لكنك سائر في عملك ، ايها الخريف الحزين ! ونحن سائرون في اعمالنا ، وفي نفسك معان وحكم وفي قلوبنا امان وآمال ، وهموم وشجون . غير اننا نذهل احياناً فننام ونحلم ، بينما انت جاد دوماً ، يقظ ابداً ، تبدي وتعيد ، وتأمل وتحقق ، وتقرر وتنفذ . ثم تهز رأسك سخرية بنا وهزءاً ، وتقضي في سبيلك الى ما شاء الله ! !

عماطور — سعاد عارف ابو شقرا

اذاً تحت تصرفها وخدمتها .

هذا هو النظام الاساسي . فاذا هدم وارخي العنان للمخيلة . فقد العقل قوته ، متشبثاً بمعلومات ناقصة . ومملا ذاته بتخيلات مستحيلة . فيسكر بخمرة الانغـام الشعرية . ورويداً رويداً ينحرف عن جادة الصواب . وكذا الشأن في الارادة . فانها تضعف بتجاوز الاحساس حدوده . لان عادة التأثرات الشديدة توصل ، عن طريق الهيام ، الى خور القوى ، كما تؤدي الحمى الى الهزال .

تهذيب الذاكرة

الذاكرة قوة مهمة للاقتباس وحفظ المعارف . نعم يقال : اذا زادت القوة الذاكرة ، قلت القوة الحاكمة . » بيد ان الخبرة تثبت ان القريحة المتوقدة والذاكرة الفريدة غالباً ما تتعادلان . والجهد في اكثار المعلومات لا يخلو من الفائدة للمخيلة والشعور . وللذاكرة قيمة ادبية ، لتقويتها الارادة وتهذيبها الطبع . فمن المفيد تمرين الذاكرة ، لجعلها مستودعاً للنصوص والامثال والقواعد والحقائق على اختلاف ضروبها . فهذا كنز لا مثيل له ، ولا قدرة لأحد عـلى خطفه منا . فقد جاء في الامثال : « حرف في قلبك ، خير من الف في كتبك . » وقالوا : « لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ، ولا يعمر بك النادي . » وانشد الشاعر :

« علمي معي حيث ما يممت ينفعني   قلبي وعاء لـه لا بطن صندوقي

ان كنت في البيت كان العلم فيه معي   او كنت في السوق فالعلم في السوق »

غير انه لا يسوغ تعلم شيء دون فهمه ويجب ان نفتش تحت قشر الكلمات على لب الاشياء ، وان نتقصى النص بعين فاحصة ، وان ننير بنور المعارف القديمة ما اكتسبناه من المعلومات الجديدة — فكل اكتساب يشدد قوة الفكر ، ويهيء امام المرء فتوحاً حديثة . فقد قيل ايضاً : « كونوا للعلم رعاة ، ولا تكونوا له رواة . »

لقد ادعى فريق من علماء النفس ان الذاكرة غير قابلة التحسن . الا ان الاختبار يدل على العكس . اي ان كل ذاكرة تستمر دون عمل تضعف . لكونها تنقص بالتواني ، وتنمو بالنشاط . وقوتها متوقفة خاصة على غزارة الحاسات . فان انتعشت هذه الحاسات ، ازدادت الحافظة قبولا ومتانة .

على ان هناك قاعدة نفسية غير جائز نسيانها ، وهي ان مدى الذكر هو عادة بنسبة الاقتباس . فمن اللازم ان يرسخ المرء في عقله المعارف بانتبـاه شديد متواصل ، وان يرتب ويصنف الافكار . فالخواطر المتناسقة بطبيعتها سهلة الانتظـام في الحافظة ومن شأن التوارد الاعانة على تثبيت الذكريات . والافكار التي تقاربت مرة من المرات تصبح عديمة الانفصال ، فلا يظهر الواحد منها الا وقد تبعه صنوه . واذ كانت آفة الذاكرة النسيان ، فمن الخطأ الاعتماد على الحفظ وحده ، واغفال تقييد العلم في كناش او دفتر ، ثقة بما استقر في الذهن . لان الشكل معترض والنسيان طارق . وقد قيل : « اجعل ما في الكتاب رأس المال ، وما في قلبك النفقة » . وقيل ايضاً : « لولا ما عقدته الكتب من تجارب الاولين ، لانحـل مع الزمان عقود الآخرين .

تهذيب المخيلة

تهذيب المخيلة واجب لازب . لان مؤازرتها لا غنى عنها في العمل العقلي . هناك من يصم المخيلة بعيوب ، لجموحها احيانـاً . بيد ان الادراك والمخيلة يجتمعـان ويتعاونان . لكنهما يتعرقلان حسبما يمكن المخيلة انزال كبير المضرة ، او الافادة جزيل الفائدة . الخبرة تعلم ان المخيلة الجامحة تخنق القياس والحكم . فاحسن استخدام المخيلة جعل العقل قائداً لها ، واسوء استعمالها ترك الحبل على غاربها . فالمخيلة اذاً صالحة بذاتها ، ولا تمسي مضرة الا حين اغتصابها مقـام العقل . اذ انها عوض بقائها خادمة ، تسعى في ان تضحي السيدة المطاعة .

من خواصها الحسنة انها ترفعنا فوق الحياة الواقعية ، فاتحة للعقل آفاق اللانهاية . فهي ينبوع الشعر ، والقوة الجاذبة الى نفسنا اشعة النور والامال . هي مبدأ الابداع والرقي ، هي المانحة النفس حرارة العبقرية ، هي الساحرة الكاشفة الاشياء الخفية ، هي القـاصدة المقاصد المغيرة وجـه البسيطة وحالة البشرية . وفي ميدان العمل العقـلي ، هي القوة الفنية والشعرية السامية ، هي المحولة المواد ، والخالقة جديد الحالات والبيئـات . هي في باب العلوم ينبوع الفرضيات ، والهاتكة الستار مما لم يحكم به من المناسبات . هي التي لقنت النسبة بين الاوعية والشرايين ، هي التي مهدت السبيل للوقوف على الدورة الدموية ، هي التي بفضلها رقي العلم من ظاهرة مبتذلة الى سنة التجاذب في الاجسام ، وادراك خطورة البخار .

اما في الدرس والبحث فمهمتها متواصلة . اذ ان ما يدخل الى العقل يعبر في الحواس والمخيلة . مما جعلها القهرمانة المهمة للادراك . ولوجودها في منتصف الطريق المؤدية من الحواس الى القوة المدركة فهي بمنزلة الرسول او البريد بين الاثنـين . هي التي تقدم للعقل الصورة المحسوسة او العنصر الاول لشغل الفهم . ومن الجهة الاخرى

تمنح مجردات العقل ضرباً من الجسم الرقيق الذي يكاد يجعلها منظورة

اما تهذيبها فليس من الهين القيام به . اذ لا شيء خارجي في وسعه قسرها . لذا يتعذر اجبار امرىء على التخيل ، او ابطاله في ساعة محدودة . هي قليلة المرونة ، لكونها حروناً ، وفوريـة ، وشخصية . وفردية . هي صادرة عن الشعور والهوى ، ولا عن المعارف والاساليب المنطقية . فالاولى ان تترك لها الحرية لاختيار ما يلائمها من المارسات . وتوسعها ناجم مما تتغذى به من الصور ، والمشاهدات الطبيعية ، والمطالعات ، والاسفار ، وسماع الالحـان الموسيقية . ويتواصل بالاساليب الادبيـة ، وممارسة الحاسات ، كمحبة الجمال والخير ، والاعجاب ، والحماسة ، والكلف بالمناظر الطبيعية ، والتنزهات ، والمحادثات المفيدة ، وقراءة التراجم السنية ، وروايات الاسفار ، والشعر الوصني والاخلاقي .

وهناك طائفة من المباحث من شأنها تسهيل تهذيب المخيلة . من مثل مواضيع العلوم الطبيعية المستندة الى الملاحظات ، والدافعة الى الانذهال من العجائب التي نشرها الله في الكون . التاريخ يقدم لها اشخاصاً ومشاهد وحوادث . الجغرافية تعرفها بمبتدعـات العلم الباهرة . الادب يفيض الفرص للتعبير عن الافكار . ودرس المؤلفين يوحي الجمال الادبي ، ويوسع في النفس فكرة اللانهاية .

تهذيب الشعور

ان هذه القوة ، قوة الشعور ، ذات نفوذ بليغ في الشغل العقلي . فقد رأينا انها مساعدة للارادة . وهي كلما اشتدت ، كبرت وظيفتها . ان شاء المرء المحافظة على الحرارة في الشغل ، انعش دائماً العواطف التي تدفعه اليه . فعليه ان يفتح ابواب نفسه لكل التأثيرات القادرة على ما يرفع مقامه .

ان الواقعيين قد ادعوا ان الدماغ وحده كاف للعمل العقلي . ولكن القلب آلة خطيرة ، لكونه قوة وحياة . وفي تهذيب العاطفة ضروري النضال لمناهضة الانانية ، واميال الطبيعة المنحطة . فالواجب تغذية القلب بعواطف نبيلة ، وملذات رفيعة ، من مثل محبة الشغل الادبي ، والقراءة ، واللعب ، والرياضة ذاتها ، بشرط ان تكون تثقيفاً وترويحاً معاً . ولا شيء اكثر فائدة من المارسة المدققة للواجب ، والتدقيق في اداء كل شيء في اوانه . فاذا تعود القلب هذه التضحيات المتواصلة ، تحرر شيئاً فشيئاً ، فيحلق بفرح فوق مغريات الحواس الدنيئة ، مصبحاً على استعداد للتأثر بكل الدوافع التي تحمله على اعظم درجة من الكمال .

اما الانانية فهي العدو الالد المترصد للفتك بالعاطفة . فما يعطل عمل الروح — مانعاً اياه عن اداء التضحيات الكبرى — هو ذاك الاهتمام المفرط بالذات . فينبغي للمرء رذل وقمع هذه الاثرة وبسط قلبه ، غير محجم ، عند ادنى فرصة ، عن الكفاح وبـذل النفس والتضحية . فلا يقول ابداً « ما اقدر » ، لان الشجيع قدير .

هذا ومن شأن العلوم التي يتلقنها المرء ان ترفع قدر القلب فتصل بالانسان الى غايته . اذ حين تتولى على النفس فكرة كبرى سامية ، هان على الجنان اتباعها ، ناشطاً لتحقيقها . الدرس يهدىء الحواس ، وينمي اضطرابات الخارج ، مانحاً العقل السلام الهنيء ، والقلب ، الغبطة والانشراح . في البحث تجد النفس حريتها ، والقوى لذتها الحقيقية . الحافظة تفتش فتجد درراً قيمة . المخيلة تتبع مثالا يخطفها بالاجتذاب . العقل ينظم فينير فيثبت فيشهد لذاته بحسن ما اتاه من الافعال . الارادة تتمسك بالضروري والمفيد ، فتلقي فيه سعدها .

تهذيب الارادة

كل يوم نشعر بتأثير السنة الخطيرة ، سنة الشغل ، الخاضع لها كل انسان . وفي كل ساعة يجب مقاومة تقلبات العقل ، وارتخائه وجموده الطبيعي ، تجاه طائفة من الابحاث . ولا يكتسب النشاط الادبي الا بالمراس ، الكتب والخطب وامثالها لما يحرك الى الخير . واقتباس العلم خاصة ، والتضلع من الادب يتطلب من العقل مواصلة الجهد . فالمرء عارفاً اي جلد يلزمه للتعميق في موضوع من المواضيع ، ولاناطته بما يسبقه ، حسب قواعد ملائمة للانتقال من المبادىء الى النتائج ، ومن الواقعات الى العلل والسنن .

الارادة تتهذب وتتقوى بالخضوع الحكيم . على ان هنـاك انواعاً شتى من الخضوع . هناك خضوع الخنوع والاستسـلام ، خضوع الخالين من الخلق ، خضوع العبيد العاملين خوفاً من العقاب ، خضوع الغضابى المتذمرين . هناك اخيراً خضوع الابناء الاحرار ، خضوع العقلاء الراضين بالنظام ، فيقبلونه قبولهم دليلا هادياً ، وحكيماً ، ومنعماً ، يدبر احوالهم واعمالهم . ان خلا الرجال من الهمة في كهولتهم ، فلخلوهم من الطاعة في حداثتهم . والذي يكون الارادة الحازمة والاخلاق المتينة انما التعود برجولية للطاعة بحرية . والاستقلال المبكر لا يبني المرء بل يهدمه . والنظام لا يذهب بالنشاط . لان السيل لا يشتد قوة ، الا حين يضبط مجراه .

الارادة تقوى بالمنافسة النبيلة - لان المنافسة توسع الاميال السخية ، والاهوآء الكريمة ، ولا سيا عاطفة الشرف وعدم الرضاء بالبقاء في درجة انزل من درجات الغير . والشجاعة لازمة لاداء الواجب ، وخصوصاً في محيط اغلب اهله خائرو العزائم . وخشية الجهد العقلي والادبي وباء متفش، اعراضه هينة التشخيص، وهي: المحادثات البطالة، والمطالعات الطائشة ، والتاهل في الشغل ، وحب الاخلاد الى الراحة لكن السبيل المفروشة بالورود ليست بالمؤدية في المسائل الاشد تعقداً ودقة . والاستنتاج بجرأة ودون تمييز ، الى قمم المجد . ولم يوضع قط اكاليل الغار والانتصار الا على الهامات المشجوجة . والتأريخ شاهد على ان كل الرجال العظام كانوا ذوي ارادة صارمة .

والامثلة على ذلك كثيرة لا تحصى . نجتزئ منها بمثل لينكولن، رئيس الولايات المتحدة . فان حياته تمثل عبرة عن قوة الارادة . فقد كان في سن العشرين حطاباً وطحاناً ، في الخامسة والعشرين ، صار محامياً . في الثلاثين ، مثّل ولايته في مجلس الاشتراع . في الاربعين ، انتخب عضواً في الندوة . في الخمسين ارتقى الى منصب الرياسة في الولايات المتحدة . في السادسة والخمسين مات قتيلاً . فارادته قلعت العقبات القائمة في طريقه ، وهي الفقر ، والجهل ، والاوهام ، والحرب ، والعبودية فدخل دار الخلود من باب الاستشهاد المجيد .

القدرة على الجد هي مقياس قدر الرجال . واصحاب التصلب منهم والعناد هم المفلحون . حتى يكاد يكون سر القلوب الكبيرة النبيلة في هذه الكلمة « سوف اثبت » او في مثل هذا الشعار : « اما ان اجد لي طريقاً ، واما ان اشق لي سبيلا . »

تهذيب العقل

ان العقل السليم سيد الحياة البشرية . وتهذيبه قائم على منحه، بالدرس والتفكير ، ذوق الحق وتمييزه — يضاف الى ذلك الدقة والحذاقة لمعرفة البراهين الخاطئة ، والنفور من الاقوال العارية من المعاني ، والصيغ الفاضة المظلمة . مما يدفعه الى التمسك بعروة الحق المنشود ، والسعي ورآء الطرق الموصلة الى الفوز بامتلاكه .

وهذا التعهد ، تعهد العقل ، متوقف على امرين : الاحتراز من الضلال ، وتقوية الاستقامة الطبيعية . وللحصول على ذلك ينبغي اجتناب الاوهام ، اي الاراء المقبولة دون فحص ولا تدقيق، مما يمكن صدوره عن البيئة العائلية ، والتربية ، او من مذهب عقل الفرد . ثم التهور الحامل صاحبه على ابراز احكامه أنياً، قبل البت استناداً الى ادلة ناقصة ، او استنباط نتائج عامة من حقيقة خاصة ، او نتائج غير منطقية من حقيقة عامة . ثم توانى الروح الدافع المرء الى اغفال تحري الامور بذاته ، وتلقي الاراء على علاتها من قبل من يحبهم ويعجب بهم . او الى رفض بعض المذاهب لصدورها عمن ينفر من طبعهم . هذه كلها علامات ضيق الفكر، او قلة الذكاء.

هناك كذلك شيء من الاسباب الادبية . منها الانانية التي تغري المرء على عدم الاقرار بخطئه ، فيصر على رأيه الفائل ، مع وضوح وصوابية الرأي المخالف . فيتمسك به لكونه رأيه ليس الا . هناك ايضاً الجهل المبرز الحكم دون الادلة الكافية . هناك الاغراض الشخصية ، والاهوآء المنحرفة ، والبيئات الاجتماعية ، والعادات السائدة ، والتعصب الاعمى وروح الحزبية .

ومما يؤازر على تهذيب العقل ، ويقوي فيه الاحكام الصائبة، هي العلوم على اختلاف انواعها . منها الرياضيات ، وهي دروس عملية المنطق . لان حل مشاكلها قائم على وجوه مناسبة ، وابداء حكم، مما يزين العقل بخاصة الاستقامة المتطلبة دقة التعبير ، والجلاء ، والصراحة ، والقياس . منها التاريخ ، المفيد ايضاً، لان من تعليمه تستخرج وضاحة عجيبة للقوة المميزة . فيه تعرض الاسباب ونتائج الواقعات وتسلسلها المنطقي ، وفيه ابداء الاحكام على الحوادث وابطالها . فتشجب الرذيلة ، والدناءة ، والقسوة ، والجور، وتعظم الاعمال الشريفة ، فتستنبط منها القواعد والاحكام لسير الحياة .

منهم علم اللغات . فانه يساعد على نظام الروح . ومن فروعه الترجمة بنوعيها ، لما تستلزمه من الانتباه المتصل للتعبير عن ادق فروق الفكر . مما جعل مترجمة مقابلة للتفكرات . ومنها الفيزياء . فانها تلهم عادة المشاهدة وانعام الفكر . وبها يتكون الروح العلمي الذي هو استعداد دائم للارتقاء من الواقعة الى علتها ، ومن الخبرة الى المبدأ والسنة . منها الفلسفة . فهي جزيلة النفع لانماء وتوسيع الحكم الصائب . فقواعد المنطق تعلم العقل تدبير ذاته تدبيراً اميناً في سبيل التحري عن الحق . وتزوده بالوسائل الملائمة للوقوف على المغسطات ودحضها . والقياس آلة مهمة فاخرة للبيان والنقد، ورياضة حسنة للتعقل، ووسيلة عجيبة للغور في قعر الاشيآء . وكشف بطلان التخيلات والاوهام .

القدس الاب مرمرجي الدومنكي



صفحة من تاريخ اديبات اندلسيات

☆

لعل حضارة ما لم تبلغ مبلغ الحضارة في اندلسة ، ايام سرت فيها الروح العربية وتدفقت بحيويتها معطية ومبدعة .

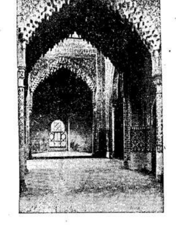
ولسنا الان بمعرض الحديث عنها . وعن الوانها ، وانما نود ان نضع تحت نظر القاري، اخبار طائفة من اديبات اندلسيات تفتقت عنهن هاتيك الحضارة وتأنقت في انشائهن . على انهن يفتن الاحصاء لو اردناه ، ويكفي ان نعرف انه كان في احد ارباض قرطبة عصر عبد الرحمن الناصر مائة وسبعون امرأة يجودن الادب والانشاء ، منهن زوجة قاضي « لوشة laja » احدى مدائن الاندلس ، بزت العلماء في معرفة الاحكام والنوازل والاقضية .

حتى لقد كتب اليه بعض اصحابه مداعباً :

« بلوشة » قاض له زوجة
واحكامها في الورى ماضية
فيا ليتــه لم يكن قاضياً
ويا ليتهــا كانت القــاضية

فارتجلت بديهة حين اطلعها على الابيات :

هو شيخ سوء مزدرى   له شيوب عاصيــة
كلا لئن لم ينتــه   لنسفعن بالناصيــة



ومن مشهوراتهن « حمدة » ويقال لهــا حمدونة بنت زياد المؤدب من وادي « آش guadix » احدى مدائن الاندلس . قال ابن المقري في نفح الطيب هي خنساء المغرب وشاعرة الاندلس دون منازع ، ومن منظومها — وقد خرجت مع نساء الى واد ، نهره منقسم الجداول بين الرياض ، فنضون ثيابهن وسبحن في الماء وتلاعبن :

اباح الدمع اسراري بواد   بــه للحسن آثار بواد
فمن نهر يطوف بكل روض   ومن روض يرف بكل واد
ومن بين الظباء مهاة انس   سبت لبي وقد ملكت فؤادي
لها لحظ ترقــده لامر   وذاك الامر يمنعني رقادي
اذا سدلت ذوائبها عليهــا   رأيت البدر في افق الســواد
كأن الصبح مات له شقيق   فمن حزن تسربل بالســواد

ومنهن « عائشة بنت احمد القرطبية » ، لم يكن في زمانهــا من حرائر الاندلس من يعدلها ادباً وفهماً وشعراً وفصاحة . دخلت على الملوك ومدحتهم وتوفيت عذراء سنة ٤٠٠ وابن سعيد الرحالة يصفها في كتابه المغرب في اخبار المغرب « بانها من عجائب اوانها ، وابو عبد الله الطبيب عمها ، ولو قيل انها اشعر منه لجاز » . دخلت على المظفر بن المنصور ابن ابي عامر ، وبين يديه ولده فارتجلت :

اراك الله فيه ما تريد   ولا برحت معاليه تزيد
فقد دلت مخايله على ما   تؤمله وطالعه السعيد
وكيف يخيب شبل قد نمته   الى العليا ضراغمة اسود
فسوف تراه بدراً في سماء   من العلى كواكبه الجنود
فانتم آل عامر خير آل   زكا الابناء منكم والجدود
وليدكم لدى رأي كشيخ   وشيخكم لدى حرب وليد

ومنهن « نزهون الغرناطية » من اهل المائة الخامسة ، وصفها صاحب المسهب « بخفة الروح والانطباع الزائد والحلاوة ورواية الشعر والامثال ، مع الجمال الفائق والحسن الرائق » . حكي انها كانت تقرأ على ابي بكر المخزومي الاعمى ، فدخل عليها ابو بكر الكندي فاخذه جمالها فقال يخاطب المخزومي :

لو كنت تبصر من تجالسه . . . . .

فافحم واطال الفكرة فما وجد شيئاً ، فقالت نزهون :

. . . . لغدوت اخرس من خلاله
البدر يطلع من ازرته والغصن يمرح في غلائله

ومن شعرها :

لله در الليالي ما احسنها وما احيسن منها ليلة الاحد
لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت عين الرقيب فلم تنظر الى احد
ابصرت شمس الضحى في ساعدي قمر بل ريم خازمة في ساعدي اسد

ومنهن « قسمونة بنت اسماعيل اليهودي » وكان ابوها شاعراً وعني بتأديبها ، قال ابن المقري ، وربما صنع من الموشحة قسماً فأتمتها . قال لها ابوها يوماً اجيزي :

لي صاحب ذو بهجة قد قابلت منها بظهر واستحلت جرمها

فقالت :

كالشمس منها البدر يقبس نوره ابداً ويكسف بعد ذلك جرمها

فقام كالمختبل وضمها اليه ، وجعل يقبل رأسها ويقول انت والعشر كلمات ، اشعر مني ... ونظرت في المرآة فرأت جمالها وقد بلغت اوان الزواج ولم تتزوج ، فقالت :

ارى روضة قد حان منها قطافها ولست ارى خدناً يمد لها يدا
فواسفاً يمضي الشباب مضيعاً ويبقى الذي ما ان اسميه مفردا

ومن قولها في ظبية كانت تحت يدها :

يا ظبية ترعى بروض دائماً اني حكيتك في التوحش والحور
امسى كلانا مفرداً عن صاحب فلنصطبر ابداً على حكم القدر

ومن مفاخر الاندلس « ولادة بنت المستكفي » قال ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة « كانت ولادة اديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر تناضل الشعراء وتساجل الادباء. وعمرت ولم تتزوج توفيت سنة ٤٨٠ . وكان ابوها المستكفي قد بايعه اهل قرطبة لما خلعوا المستظهر ، وكان خاملا ساقطاً وخرجت هي في نهاية من الادب والظرف ، حضور شاهد وحرارة اوابد وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لاحرار الصبر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر . يعشو اهل الادب الى ضوء غرتها ، ويتهالك افراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، تخالط ذلك بعلو نصاب ، وكرم انساب ، وطهارة اثواب ، وفيها خلع ابن زيدون العذار ، زارته يوماً فلما همت بالانصراف انشدته :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن زاد في تلك الخطى اذ شيعك
يا اخا البدر سناء وسنى حفظ الله زماناً اطلعك
ان يطل بعدك ليل فلكم بت اشكو قصر الليل معك

وارسل اليها ابن زيدون يوماً هذه الابيات :

الا هل الينا بعد هذا التفرق سبيل ، فيشكو كل صب بما لقي
وقد كنت اوقات التزاور في الشتا ابيت على جمر من الشوق محرق
فكيف وقد امسيت في حال نوبة لقد عجل المقدور ما كنت اتقي
تمر الليالي ، لا الصبابة تنقضي ولا الصبر من رق التشوق معتقي
سقى الله ارضاً قد غدت لك منزلاً بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

فاجابت بقولها :

لحى الله يوماً لست فيه بملتقى محياك من اجل النوى والتفرق
وكيف يطيب العيش دون مسرة واي سرور للكئيب المؤرق

وكتبت اثناء الكتاب « وكنت ربما حثثتني على ان انبهك على خطأ اجدك عنده واني آخذة عليك قولك :

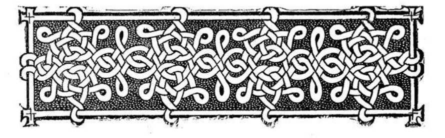
سقى الله ارضاً قد غدت لك منزلاً

فان «ذا الرمة» قد انتقد عليه قوله مع تقديم الدعاء بالسلامة :

الا يا اسلمي يا دار «مي» على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

اذ هو اشبه بالدعاء على المحبوب منه بالدعاء له ، ولكن المستحسن قول الآخر :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي



حول اصلاح التعليم في لبنان

بقلم

الآنسة روز غريب

✯

لقد مرّ علينا سنتان او اكثر ونحن نضع الخطط لاصلاح التعليم في لبنان . وهـذا التخطيط – وان كان لم يخرج بعد الى حيز العمل والتطبيق – هو بلا شك بادرة خير ومدعاة امل ورجاء .

لكن الذي نلاحظه على هذه الخطط انها اولا ضيقة المدى لا تتعدى اصلاح المناهج وانه يعوزها الشمول واتساع الافق . ثانياً انها غير مسترشدة دائماً بروح العلم، روح التجرد الخالص والترفع عن العاطفة والنعرات الشخصية ولعل هذا هو السر الاكبر في فشلها .

ولنترك النقطة الثانية يحل مشكلتها الزمان والبحث في النقطة الاولى . لقد كنت اتساءل – كلما سمعت بحركة اصلاح المناهج – لماذا تثار هذه الضجة حول المناهج ولا تثار حول امور لا تقل عنها اهمية . واردت ان اسأل القائمين بالحركة : تريدون اصلاح المناهج وهذا ضروري ولكن هل عندكم معلمون يطبقونها؟ هل عندكم كتب تدريس صالحة؟ هل عندكم مدارس ؟

واذا لم اسمع جواباً حاولت الجواب بما في استطاعتي .

اولاً : هل عندنا معلمون ومعلمات ؟

من صفات الاميركيين المستحسنة ولعهم بالاحصاء وليتنا نأخذ عنهم بعض هذا الميل فنقوم باحصاء للمعلمين والمعلمات في لبنان نعرف عددهم واصنافهم ودرجاتهم ونطرح عليهم مثل هذه الاسئلة التي تطرح على محترفي التعليم في باقي اقطار العالم : لماذا احترفت مهنة التعليم؟ أأنت من حملة الشهادات وما نوع شهادتك؟ هل تخصصت في التربية والتعليم، وما هي وسائل نموك المهني ؟

قد لا يكون من الخير ان نعطي اجوبة جازمة ولكن الراجح اننا لن نخطىء اذا قلنا ان القسم الاكبر من محترفي التعليم عندنا – واكثره ابتدائي – انما يحترفونه حين تسدّ في وجوههم سائر ابواب الارتزاق لاسباب اهمها ضعف في الثقافة او قلة في الكفاءة الشخصية . ومن الاخطاء الشائعة ان اياً كان يستطيع تعليم الاطفال والاولاد . والواقع ان للتعليم الابتدائي من الاساليب الحديثة ما يجعله عملاً معقداً لا يستغني عن التخصص .

ان المعهد الوحيد لاعداد المعلمين عندنا هو المعهد الحكومي الذي يحضّر للتعليم الابتدائي وينقسم الى دار المعلمين ودار المعلمات . ولكن اي جزء بالمئة من معلمينا ومعلماتنا تثقفوا في هذا المعهد؟ انه بحكم الطبع جزء ضئيل وليس من يجهل ان مئـات من معلمي المدارس الابتدائية والمتوسطة – وحتى الثانوية – لم يحصلوا على اصغر الشهادات المدرسية ، اما لانهم نالوا مراكزهم بالوساطات – وهم العدد الاكبر – او لانهم قدماء ، وُظّفوا قبل ان تنتظم في البلاد شهادات وقوانين مدرسية .

واكبر شاهد على ضعف الهيئة التعليمية في لبنان انها – رغم كثرة المدارس عندنا بصورة نسبية – لم تتمكن من اصدار مجلة واحدة تربوية ، وانها وهي الطبقة المثقفة وربما الاكثر عدداً (١) بين طبقات اصحاب المهن، لم تتمكن من تأليف نقابة في حين ان للخياطين والحلاقين والطهاة نقاباتهم، فضلا عن المحامين ومحرري الصحف ومستخدمي الصناعة والتجارة .

وقد حاول بعض القائمين بشؤون التربية عندنا ان يحصلوا على احصاءات وتقارير وافية عن حالة التعليم في لبنان فلم يجدوا في وزارة

(١) في لبنان ٨١ الف طالب وطالبة وفوق ١٥٠٠ مدرسة وعدد المعلمين لا يقل عن ثلاثة آلاف اذا حسبنا المعدل اثنين في كل مدرسة .

المعارف ما يصح الاعتماد عليه ولا استطاعوا الحصول على بيان واضح بالقوانين المتعلقة بالمدارس والمعلمين والتفتيش وعلاقة الحكومة بالمدارس الخاصة والاجنبية . وليس هناك قانون يفرض على الاحداث اللبنانيين درس لغتهم فتجد في المدارس الخاصة الابتدائية اطفالا واولاداً يحملون الجنسية اللبنانية ولا يدرسون العربية . وليس في اقطار العالم المتمدن من يقبل توظيف معلمين ومعلمات من غير شهادات مدرسية ولا امتحانات الا حكومة لبنان . فالوساطة هي الشهادة والامتحان .

في فلسطين — وهي قطر حديث في تنظيمه الثقافي — لا يقبل للتعليم في مدارس الحكومة الا حاملوا الشهادة التعليمية وان قبل غيرهم من ذوي الشهادات العادية فرضوا عليهم تقديم امتحان بيداغوجي في خلال مدة معينة . وباب الترقية مفتوح للمعلمين بصورة مستمرة ولكن على اساس الامتحان فقط وهو قانون جدير بالاعتبار لانه يستهدف حمل المعلمين على النمو المستمر والاتصال الدائم بالحركة العلمية والتطورات البيداغوجية في العالم ، مما لا بد منه لكل مدرس لئلا يتعرض للجمود والتحجر الفكري .

انه لجدير بلجان الاصلاح ان تقوم باحصاءات دقيقة عن حالة المعلمين والمعلمات في مدارس لبنان من حكومية وخاصة ، اي عن شهاداتهم ومؤهلاتهم وكفاءاتهم ، وقبل ان تفرض عليهم المناهج الجديدة ، ان تفرض عليهم وسائل الدرس والنمو ، لانهم بدونها لا يستطيعون تطبيق المناهج ولا يستفيدون منها . وحينئذ يستطاع تنظيم سلسلة من امتحانات الكفاءة التدريسية تعتبر وحدها وسيلة للتثبيت ووسيلة للترقية والتصنيف ومن لم يجزها بنجاح يصبح عرضة للصرف بعد مدة محدودة .

تبقى مسألة زيادة دور المعلمين الابتدائية وانشاء دار تعدهم للتعليم الثانوي وارسال بعثات الطلاب الى الخارج للتخصص في التربية والعلوم واللغات وهو موضوع كثر الحديث عنه فلا نعود اليه

ثانياً : هل عندنا كتب تدريس ؟

قد تعثر على المعلم الكفء ولكن اندر منه وجوداً الكتاب المدرسي الصالح . ومعنى هذا انه اذا اجتمع المعلم الضعيف والكتاب السيء الحال — وكثيراً ما يجتمعان — فهناك الطامة الكبرى .

ومعنى هذا ايضاً ان المعلم الذي يستعمل كتب التدريس العربية عليه وظيفة مضاعفة : القيام بواجبه كمعلم والاهتمام بتعديل كتب التدريس وسد نقصها ولهذا يجب ان يكون من ذوي الكفاءة الحقة .

تقسم هذه الكتب الى قسمين : كتب العلوم (الرياضيات والاشياء الخ) وهي قليلة وغالباً منقولة عن اللغات الافرنجية فهي لذلك افضل حالا من غيرها . وكتب اللغة (قواعد وقراءة) والتاريخ والجغرافية ، وهي التي لاتزال في حالة نقص شديد ولنذكر بعض وجوه نقصها :

ان بمعظم كتب القواعد المستعملة في لبنان لا تزال قديمة الاسلوب لا تختلف في موادها واساليبها عن كتب القرن التاسع عشر . فنحن نفتقر الى كتب قواعد حديثة الطراز تسهل القواعد بالتبسيط والتوضيح والاكثار من تمارين التطبيق وتحذف النوافل وتزيد مواضيع اساسية هامة في الانشاء والبيان . ولا ننكر ان هناك محاولات لا تزال برعمية ، ولا ندري اتكون مما يسد فراغاً ام لا .

كتب القراءة ، منها ما يحتوي القطع الركيكة العبارة او التي يعوزها الذوق الادبي . ومنها ذات القطع القديمة الاسلوب الوعرة الالفاظ والضعيفة المادة . ومنها التي يعوزها التمارين والشروح والاسئلة العصرية النهج او تنقصها الصور المناسبة ذات اللون المحلي . ومنها ذات المواضيع البالية او المعاني الخاطئة . ولاضرب لك مثلا يدل على ذهنية بعض المؤلفين : في كتاب قراءة حديث للاولاد حكاية طفل مريض « وامه تبكي وتقول للطبيب اني اموت اذا طال مرض ولدي » وفي وصف الام مظهر ضعف لا يحسن عرضه على الاولاد الذين نريد تنشئتهم على رباطة الجأش . وفضلا عن ذلك نجد بين كتب القراءة ما لا يخلو من دعايات مذهبية ونحوها .

وهناك كتب التاريخ والجغرافيا التي تنساق اكثر من غيرها لاصناف الدعايات وهي فوق ذلك شديدة الافتقار الى الطريقة العلمية يغلب فيها اسلوب الحكايات والاساطير وتكثر الاخطاء والمغالطات . وهاك نموذجاً من الاساطير في كتاب تاريخ (تقرر تدريسه في المعاهد الرسمية حسب قول المؤلف) : « الاشوريون ابناء اشور بن سام بن نوح » ! « الفرس قوم يافثيون » . « بنى رومولوس اول ملوكهم مدينة رومة » « في الجيل الثاني للمسيح » بدل « القرن الثاني » . « الملكة زينب » بدل زنوبيا . « اول من غزا سوريا ولبنان ملوك بابل الكلدان » . والواقع ان الكلدان جاءوا بعد الاشوريين . « فلسطين اختص بها الانكليز ليقوموا بوعدهم لليهود باعطائهم اياها وطناً قومياً » ! ومن ركاكة التعبير :

« تقارير اللجان المولجة درس مشاكل هذه القضية » . «بنى المساجد الدينية » ومعروف ان المسجد ديني . ومن الاقوال الجارفة : «كان الفلسطينيون اولا ضعفاء لكنهم تقووا مع الايام » كيف ، لماذا ، انها « الايام » .

اما كتب الجغرافية فينقصها الخرائط الحسنة الدقيقة الصنع والاحصاءات والشروح والصور . اي ينقصها اهم موادهـــا . ومعظمها ذات اسلوب غير علمي جارف التعبير .

« اصبح لديهم عدد لا يستهان به » اي عدد، « في لبنان عدد كبير من الصحف» ؟؟ « مياه لبنان تنقي الدم وتشفي من الامراض» وهو من نوع كلام العامة : وتقرأ في مكان آخر : « وهي مقر آل . . . زعماء جبل عامل » « وهي مقر ال . . . زعماء الشيعة » ألا نزال في عهد الزعامات الوهمية المبنية على الانساب، حتى في كتب الجغرافية ؟ ؟

ومن التحديدات الساذجة الخاطئة : المستعمرة بلاد تملكها حكومة غريبة » . وايضاً : الاديان قسمان قسم يعرف اتباعه الاله الحقيقي وقسم لا يعرف اتباعه الاله الحقيقي » وهو تقسيم خاطيء يرجع الى العصور الوسطى . ومثله تقسيم اجنـــاس البشر حسب الوانهم . . .

اما كتب المطالعة – لا سيا مطالعة الاطفال – فاكثر اتكالنا فيها على الكتب المصرية وفيها الغث والسمين وفيها الحكايات المنقولة عن الغرب بطريقة مشوهة او بعبارة وعرة ومع ذلك فهي حكايات للاطفال : هذا ونضرب صفحاً عن كتب الاناشيد وما فيها من نقص .

الا يرى ارباب الاصلاح انه يجدر بهم الالتفات الى فوضى الكتب والسعي لحذف الركيك والضعيف والمشوه واصلاح ما يمكن اصلاحه وايجاد شيء من التلاؤم والانسجام؟ الا يرون ضرورة تأليف اللجان للتأليف والنشر والمراجعة والتشطيب ؟ هذه ايضاً نغمة قديمة ولا ندري متى تلاقي آذاناً مصغية .

ثالثاً : هل عندنا مدارس ؟

يؤخذ من احصاءات تقريبية ان عدد مدارس الحكومة ثلاث مئة وست ابتدائية يضاف اليها دارا المعلمين والمعلمات . اما باقي المدارس وهي نحو الف وثلاث مئة فالقسم الاكبر منها ارسالية اجنبية (فوق الالف) والقسم الاصغر طائفي اهلي (٣٤١) .

من هنا نرى اننا في الناحية الحيوية من حياتنا الاستقلالية لا نزال عالة على الاجانب نعتمد عليهم في بناء اسس الاستقلال .

ان لكل من مدارسنا المتنوعة مشاكلها وعيوبها . فالافرنسية – وهي تؤلف اكبر قسم منها – يهمها في الدرجة الاولى تحضير الطلاب للشهادات الافرنسية . وقد تقحم في مناهجها الخاصة المنهج اللبناني وحينئذ يضطر الطالب الى درس ثلاث لغات ويصبح مرهقاً بمنهج مزدوج يكلفه ما لا يطيق .

والمدارس الاميركية قد اتخذت لنفسها منهجاً خاصاً لا هو بالاميركي ولا باللبناني وتصرفت به كما شاءت فلا تتقيد بامتحانات رسمية ولا بشهادات حكومية وانما تزيد في بلبلة المناهج .

والمدارس الطائفية والاهلية تنحاز لهذا الجانب او ذاك وتتأرجح بين فريق وآخر لكنها تتفق بصورة عامة على بذر التعصب الطائفي ونجاحها في ذلك غير قليل .

يبقى مدارس الحكومة واكثرها قابعة في القرى وكأنها تعيش على هامش الحياة التعليمية .

أليس على أولي الامر ان ينظروا بأسرع ما يمكن في مشاكل هذه المدارس وما يجب اصلاحه فيها ثم ان يحددوا مدى تصرفها في شؤون التعليم ومقدار تقيدها بالمناهج الرسمية ويروا ما يجب القضاء عليه من نزعاتها وانحرافاتها ؟

ان هذه اللمحة السريعة في حالة المدارس والمعلمين والكتب ترينا ان هناك عللا اساسية تجب مداواتها وان الاصلاح يجب ان يسير أعمق مما يظنون وأبعد من المناهج . فان نحن اغفلنا هذه النواحي الهامة كنا كمن يداوي الصداع بالمسكنات حين يكون سببه دمّل في الرأس .

روز غريب

من اعلام النهضة الفنية

بطرس روبنس

بقلم مصطفى فروخ

استاذ الرسم بجامعة بيروت الاميركية

كنت منذ ايام اجلس الى بعض الاصحاب نتبادل حديث الفن، وقد سألني احدهم عن مدة دراستي الفنية في بلاد الغرب، وحينما علم انها بلغت ثماني سنوات على الرغم من توفير سنتين، دهش وقال: « أيقتضي عشر سنين لنوال شهادة التصوير ؟ »

أجل يا صديقي، ان الدراسة الفنية الحقة بحاجة الى اكثر من هذه المدة، وهذه الشهادة ليست سوى بدء الطريق...

وصديقي هذا على حق في دهشته، فنحن هنا لم نعرف عن الفن ومراتبه ومقتضياته الا النزر القليل، نحن نعلم ان المرء لكي يصور يكفيه قلم وورقة وشيء من المهارة واتقان الكلام المنمق واخيراً بعض الحركات وعقدة رقبة منتفخة ثم اطالة الشعر...

بل اي شيء. هنا يتطلب التعمق في التفكير والتضلع في البحث ؟ انه يكفي معرفة سطحية للاشياء وكثير من ذر الرماد والالتماس لشخصية ما، والكثير الكثير من البهلوانية... ومن ثم فانت فنان نابغ وعالم نحرير واديب كبير وزعيم خطير ووطني مجاهد.

والحق ان المتقن البحاثة هنا يصبح مزعجاً يضيق بالناس ويضيق الناس به. فهنيئاً للجاهلين اللاعبين!

وقد يتساءل احدهم ويقول واين نحن الان من روبنس موضوع البحث ؟ فاجيب انه حين نبحث موضوعاً فنياً انما نتجه به ناحية قومية واتجاهاً اجتماعياً لانه لا يهمنا من الفن وتاريخه — الى حد كبير — الا بقدر ما يقدمه من أثر في حياتنا الحاضرة واصلاح لمجتمعنا، فنحن امة بحاجة لاجتلاب الفائدة مما نمارسه من شتى العلوم والفنون ووقفها كلها في سبيل اصلاح نهضتنا، ذلك الاصلاح الذي يتجه به البعض ويا للاسف في سراديب الاغراض الشخصية والشعوذات البارعة.

لقد علمتنا الحوادث ان الكثرة الغالبة عندنا تفهم ان الفن حرفة كتلك الحرف العادية بمعناها المحدود، ليس للفكر اثر فيه ولا للثقافة مكان، انما هو عمل يدوي فحسب. ولكي نزيل من الاذهان هذا الاعتقاد الخاطئ فاننا نقدم الآن فناناً، وهو مثل كثير من اقرانه، عرف في عالم الفن كما عرف في عالم السياسة، وكانت له يد طولى في كليهما وهو الفنان الاشهر بطرس روبنس زعيم المدرسة الفلمنكية.

وقد اشتهر بفنه وثقافته وبعد تفكيره واجتماعاته بعلماء عصره وادبائه وكان على اتصال دائم بالحركة العلمية والثقافية فكان موضع احترام ارقى الطبقات المعاصرة من علمية وملكية تتبارى في دعوته اليها فكان طوراً في بلاط امير (منتوا) الايطالي وحيناً في بلاط مدريد ثم في بلاط سان جيمس بلندن ثم في باريس وبلجيكا وهولندا وغيرها من العواصم الاوربية يومذاك.

ابصر هذا الفنان النور عام ١٥٧٧ في (سيجن) من اعمال (وستفاليا) في جو مظلم يضطرم



بطرس روبنس

بالحوادث السياسية والتطورات الدينية والانقلابات الاجتماعية .

وكان اقليم الفلمنك يومئذ خاضعاً لحكم اسباني مرهق اضطر الكثيرين من اهل البلاد للرحيل والالتجاء لمختلف البلاد الاوروبية للتخلص من الجور الاسباني ، ومنهم والد روبنس الذي رحل بعائلته الى بلدة (كولونيا) حيث ولد فناننا . وقد عادت به امه بعد وفاة ابيه الى (انفرس) وكان بلغ من العمر عشر سنين حيث التحق الصبي بمرسم ابن عمه بضع شهور ثم تركه لمرسم فنان آخر يدعى (فاينيوس)

وقد تركه فيما بعد الى البندقية حيث تعرف الى الدوق (مانتوا) وعمل عنده ثم زار فلورنسا ودرس رسومها مبعث نور الفن ومجلى الهامه وهناك اتيح له ان يحضر زواج ماري دي ماتيشي بملك فرنسا .

وبعد اختلاط الدوق بروبنس هذه المدة لمس فيه رجاحة العقل وحسن السياسة فبعثه بمهمة الى ملك اسبانية مزوداً اياه بالهدايا الكثيرة .

وقد نزل عام ١٨٠٦ على طلب الارشيدوق البير في بروكسل ليكون رسام البلاط على ان يقيم في بلدته الاصلية (انفرس) حيث تزوج في السنة التالية من زوجته الاولى (ايزيلا) وقد استقر مدة يعمل في التصوير فقدم لنا جملة صور رائعة منها صورة لزوجته وصورته (والستير سقاة الخمر) وصورة (رفع الصليب) و(النزول عن الصليب) وهذه من الروائع العالمية حقاً وتعد في طليعة الرسوم الخارقة في هذا الموضوع . فصورة (النزول عن الصليب) تمثل فاجعة انسانية اضطربت لها السماء والارض وكل ما في جو اللوحة يرمز الى فاجعه عظمى وألم شامل ، فالجو مكفهر ينذر بعاصفة هوجاء في الافق البعيد تلمع بعض لمحات نارية تنم عن شفق دام وجسد السيد الكريم يبدو متراخياً متلاشياً غير ان في وجهه كل معاني الروح والامل والايمان والمثل العليا ، ففيه التضحية

النزول عن الصليب

عن رضى وحب وفيه الاطمئنان والاقتناع بجمال الفكرة السامية التي يحملها بينما يبدو الاعياء والجهد على وجوه الرجال المحيطين بالجسد المتدلي مما يهيب بنا لمعونتهم على حمله ، وهذا الثقل البادي على الجسد يريدنا الفنان ان ندرك ان الفكرة التي يحملها السيد الكريم غادرت هذا الجسد المادي وظلت مرتفعة سامية تتألق بمعانيها العلوية لا يمسها دنس هذه الارض بشتى دناياها .

ان روبنس قد وفق اقصى التوفيق في ابراز فكرته فهو في هذه الناحية التقى وزميله ده فنشي عالم النفس الجبار .

ولا بد من الالماع الى حالة النسوة الثلاث ومنهن العذراء التي ظهرت والفاجعة عندها في ابعد صورها وحدودها . هي الامومة المصابة في اعز ما تملك وارق ما تنطوي عليه ضلوعها من حنان ورأفة والتياع .

ان روبنس بين لنا في هذه اللوحة ، بل هذا العالم التام ، عن معان ثلاثة جمال التضحية المطمئن وروعة الحنان الصادق في قلب الام ثم برودة المحيطين به مثال تبذل العالم العادي المأخوذ بمباذل الحياة الدنيئة وصغارة اشيائها ، تلك الاشياء التي يتكالب عليها من لا يدرك من مثل المسيح وامه الطاهرين ذلك السمو العميق وتلك الرقة المتناهية في دنيا الحب والرحمة والحنان .

ولكن روبنس قد تزوج ثم دفعوه الى السياسة ولذلك حرمنا فيما بعد من مشاهدة امثال هذه الروائع الانسانية العالية وزحمته متطلبات الزواج ومطالب السياسة . لذلك راح يستعمل تلاميذه في انجاز صوره مكتفياً هو باللمسة الاخيرة فأنشأ مصنعاً في (انفرس) لصنع الصور الشاسعة فملأ الدنيا صوراً كبيرة واكثرها كبيرة فحسب .

وفي عام ١٦٢٢ طلبت اليه ماري دي مديتسي ملكة فرنسا المثول

لديها لكي يزين قصرها حيث لا تزال تلك اللوحات العظيمة تنير بالوانها البراقة اليوم ردهات قصر (اللوفر) وكانت الغاية منها رفع شأن اسرة مديتشي واظهار اعجاب زوجها هنري الرابع وهيامه بها .

في هذه الاثناء، استدعته زوجة الارشيدوق البر سيد بلجيكا الذي توفي ، لكي يكون مستشارها في بروكسل . وكانت ترمي لوضع اسس لسياسة اوروبية جديدة على اساس محالفة صداقة بين هولندا واسبانيا وانكلترة وعزل فرنسا عن تلك الكتلة ، وقد قابل روبنس الدوق بكنغهام الحاكم الحقيقي لانكلترة يومئذ، وكلفه الاتصال بحكومة اسبانيا للضغط على فرنسا التي كان يدير دفة سياستها وقتئذ الدوق ريشيليو . قصد روبنس مدريد وصور الملك فيليب الرابع الذي اوفده بدوره الى انكلترة وهناك رسم الملك تشارل الاول سنة ١٦٢٩ ووضع اساس الصلح بين انكلترة واسبانيا . وقد دشن هذا العمل بلوحة رمزية جميلة تدل على لباقة وحنكة قدمها هدية للملك انكلترة وهي : (بركات السلام) تمثل منيرفا ربة الحكمة تدفع الحرب الى الوراء بينما السلام يستقبل الثروة والرفاه والازدهار وابناءهما المبتهجين .

وكأن نجاحه السياسي هذا اغاظ بعض محترفي السياسة الذين لا يحسنون الا الدس والاذى، وهو في بلاط لندن فقال له : «هل مولاي السفير يلهو احياناً بالتصوير ؟ » فاجابه روبنس : « كلا انما الهو في اوقات فراغي بالسفارة » .

وقد انعم عليه الملك شارل بلقب (سير) سنة ١٦٣٠ وعاد الى (انفرس) للانصراف الى فنه قائلا : « اني اعود الان الى الحياة الحقة » وبعد مدة توفيت زوجته فاعتكف في قصره منصرفا عن شئون الدنيا الى الزراعة والتصوير الذي بقي له الصديق الوفي الذي لا يخدع ولا يؤذي . . .

وقد امتاز روبنس بنضارة الوانه وبساطة اساليبه وانتاجه الوافر ونظام حياته وحبه للحياة والخير وعشقه للجمال وقد خلق مدرسة له فجمع بين الفن الايطالي والفلمنكي وخلق منهما فناً فرض سلطانه على الفن الاوروبي خلال ثلاثة اجيال .

ومن عظمة روبنس سرعة الرسم وقد امتاز بحبه للاجسام الكثيرة اللحم والتي يبدو اصحابها شرهين يتهالكون على موائد الطعام والشراب وقد صور الكثير من (رجال الغاب) وآلهة الخمر وغيرهم من رجال الاساطير الاغريقية .

وتدلنا هذه اللوحات على ان روبنس كان يحب الحياة والتنعم بلذائذها وقد كان مسرفاً في سبيل ذلك .

واني اختم مقالي بكلمة لاحد النقادة يصف رسومه الطبيعية «اننا لا نجد في رسومه نزاعاً بين العناصر بل نجد كل شيء يلمع بالندى والرطوبة وفي الاشجار بهجة تشبه بهجة الاطفال السمان الذين صورهم في لوحته الجميلة وقد قاموا عن المائدة بعد ان شبعوا »

وقال نقاد آخر : «لقد قيل ان هناك مناظر طبيعية تهدىء النفس وتسكنها واخرى تنشطها وتقويها ، ومناظر روبنس هي من النوع الثاني ، فانه لم يكن يتصوف في نظره الى الطبيعة بل كان يقترب منها بلا هيبة تحدوه ثقة الرجل القوي الذي يحترم القوة »

وعلى الرغم من قيامه بعقد محالفات سياسية هامة كان لها شأنها في توطيد السلام في اوروبا يومئذ فانه في اواخر ايامه قد اظهر اسفه الشديد على وقت اضاعه في الاشتغال بالسياسة ذاك الوقت الذي كان من الخير كله لو صرفه في الانتاج الفني ولكان كما قال « اسدى الى الانسانية خدمات اجل واجدى »

مصطفى فروخ



« ستير » سقاة الخمر

همسة اسى

بقلم عبد العزيز احمد

مدير كلية فاروق الاول ببيروت

اخي الكريم الاستاذ البير أديب :

قص علي صديق اعزه احاديث ، كلها يثير الشجن ويبعث على الاسى ، فقد تألبت عليه الاحداث في العهد الاخير ، وكأنها كانت منه على ميعاد ، حتى ناء بحملها فانطلقته بالشكوى .

ولعله وجد عزاء في ان يتمثل بقول القائل

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة

يواسيك او يسليك او يتوجع

اما انا فقد رأيت اشجانه مما يزيد همومي بعد ان فاضت الكأس ، فلم اجد بداً من ان تخفف من بعض ما حملني بالافضاء اليك بلون واحد من ألوان كثيرة قاتمة . . .

قال ، كان الله له :

☆

عرفته كريم العنصر، نقي الجوهر، زكي النفس ، كبير القلب، عطوفاً وفياً .

وشاهدته كثير الحركة جم النشاط ، دءوباً لا يمل، ساعياً لا يكل، لا يقصر في واجب، ولا يهمل ناقله . وهو فوق هذا داع الى الله وعامل في سبيل الله .

فيه من الشباب فتوتهم واقدامهم ومن الشيوخ وقارهم وجلالهم

ان فكر في مشروع او هم بأمر، اطمأن له، لا يني حتى ينفذه، ولا يستريح الا عند تمامه . يبذل له من وقته، وعقله وقلبه، وما يلي عليه من مال، حتى يظفر ببغيته ويصل الى غايته .

رأيت ذلك منه فاقبلت عليه واخلصت له، مؤمناً بانا نتعاون لتحقيق فكرة سامية وغرض نبيل، لا نبغي من ورائها الا رضى الله وخير الوطن . زهدت من اجل ذلك في المنفعة العاجلة ورغبت عن الغنم المادي — وقد كدت ادركه — وفوت الفرصة السانحة — حين عرضت لي او عرضت علي — وانا اعلم انها ان افلتت من يدي فلن تعود ، وكانت فوق ما احلم به لمستقبلي .

اضعتها راضياً مطمئناً، لاني اريد ان اكون وفياً لمن وثق بي مخلصاً للمبدأ الاسمي الذي اعمل له رغم ما اقاسي في سبيله .

اعرف اني اعيش في محيط خاص، وتكتنفني ظروف قاسية، تتصارع فيها الرغبات والاهواء، وتتعارض المنافع والشهوات، وان منغصات الحياة كثيرة، ومتاعبها لا تحصى، واهونها كيد يكاد، وكلمة سوء تقال ، تحت ستار من الاخلاص المصطنع والغيرة المزعومة .

أشعر ان الطريق ملتوية ، والعقبات صعبة والاشواك قد سدت المسالك . والضباب كثيف لا يكاد ينفذ منه بصيص من نور ومع هذا فانا صابر مصابر ، احسب نفسي مجاهداً مع المجاهدين وان كنت في ظاهر الامر قاعداً

اتحمل الكثير من المزعجات في حياتي الخاصة، والكثير من العنت في حياتي العامة فلا القي الى شيء منه كبير اهتمام : وكان في الوسع ان اترك هذا الجو المضطرب وان اخرج من ذلك المحيط الجائر ، فيرتاح حاقد ويطمئن باغ، وتسكن نفس قلقة، واعيش انا قانعاً بما افاء الله علي من فضله، وما حباني به من نعمته ،

ولكن . اني للانسان ان يفر، وقد خدع نفسه بانه عامل مع العاملين ، وان عليه قسطاً من تبعة فهو باذل من ذات نفسه في سبيل الخير العام ، ولا عليه ان قاسى بعض ما يقاسي المخلصون .

ارى من الرجولة الا انكث عهداً، ولا أضحي بمبدأ مقابل عرض زائل، ومن الحكمة تغليب العقل على الهوى . وايثار المنفعة العامة على المصلحة الخاصة فضيلة . اعتقد ان الوفاء للصديق تقتضيه الرجولة ، واحترام الانسان نفسه وقدره وواجبه . وان الاخلاص للعقيدة يفرضه الايمان بالفكرة ، والاقتناع بالرأي ، والرغبة في ادراك الهدف النبيل والحرص على تحقيق المصلحة الوطنية

فلا أرضى ان انافق لا كون محبوبا ، ولا أداهن لاكون معززا، ولا يعجبني الانحراف ولا اقر ذويه. اقول ما أعتقده حقا، واخلص النصح فيما اطمئن اليه من رأي، وادعو الى ما اعتقده صوابا.

وقد وطنت العزم الا اشتري حطام الدنيا بالتخلي عن خلق، او اهدار كرامة، أو موت ضمير.. فمن الواجب ان ادوس على الشوك، ولو أدمى قدمي، وان أكافح الظلام، حتى تنجاب الغمة وينبلج نور الحق فنبلغ الصراط المستقيم.

ذلك مذهب لن انحرف عنه وعقيدة لن أبدلها.

الم تتحدث الى النفس، بالحق او بالباطل:

انك عشت سنين في بيئة بلوتها، فعرفت تياراتها الخفية، واتجاهاتها الظاهرة ولمست طرفاً من متاعبها، وتحسست آمالها، ورأيت دعاة الخير وجهادهم في سبيله، وعناصر السوء وصراعهم من اجله، وسمعت دعوة المخلصين، وازعجك نعيب المارقين، وادركت حيرة قوم بين هؤلاء واولئك... فقدرت دقة الموقف، وخطورة الواجب الذي دعيت له، والامانة التي حملتها... فانت تقاسي الامرين في هذا الخضم المضطرب، بسبب الرسالة التي ندبت لها — كما يقولون — والتي يدفعك الضمير والواجب — بزعمك — الى الحرص على ادائها مخلصاً!!

ومما يزيد شقاءك ان يظن البعيد عنك انك سعيد حيث انت آمن في سربك مطمئن الى قبيلك...

الا بئست حالة يختلط فيها النعيم بالشقاء ويمتزج الخير بالشر، حتى لا يميز بينهما الا القليل...

كل ذلك مما يحز في نفسي ويقض مضجعي ويجعلني في حيرة من امري، مترددا بين الاثرة والايثار...

فمن اليسير ان يهدأ البال، وتطمئن النفس، ويهنأ العيش، ان استجبت لداعي الهوى، فلم افكر الا في شخصي، ولم اعن الا بامري، فقست المسائل كلها بما تجلبه من نفع خاص، انسى في سبيله كل شيء، واضحي بكل شيء الا نفسي ومنفعتي.

ولكنهم زعموا — ويا بؤس ما زعموا — ان هناك ما يسمى ضميراً يفرض على المرء تبعات في الحياة يجب النهوض بها ثم بالغوا فتصورونا جنداً للوطن نذود عن حماه وندفع عنه ونضحي من اجله كل فيما هو بسبيله، فمن تهاون فقد اجرم ومن فر من الميدان فهو خائن...

كذلك زعموا انا نبني عقولا. وهل هناك شك في ان بناء العقول عناؤه اشد من بناء الاجسام، وتبعاته فوق كل التبعات؟!!

لقد صور لنا الوهم، أنا مسؤولون عن ابناء هذا الجيل، فنحن مقصرون ان لم نعمل على تنشئتهم نشأة قوية، ونصنع منهم رجالا يؤمنون بحقهم في الحياة الكريمة ويعرفون واجبهم فيندفعون الى الامام على بصيرة ويسعون لادراك المثل الاعلى في غير هوادة ولا تردد

فهم شباب اليوم ورجال الغد، الذين نعلق عليهم الامال.

وهم الدعامة القوية، والاساس المتين، في بناء العالم العربي، ولن تستطيع ان تقيم البناء وتوطد اركانه، وفيك ضعف، ولا ان تدرك ما تتمنى وفي قلبك وهن وعزمك خور.

العالم العربي في مفترق الطرق والكيان العربي يحتاج الى تدعيم والنهضة الصحيحة لا تكون الا بالتعاون والتآزر والتضحية. وها انت ترى حولك ومن بعيد جماعة من المخلصين قد تحالفوا على البذل وتعاونوا على البر، واقسموا الا يناموا على ضيم ولا يفتروا حتى يستردوا الحق المسلوب ويبعثوا مجداً كاد يندثر.

وها هي القافلة تسير فلا تكن من المعوقين ولا تتردد عن الاقدام، لتقطع الطريق على العابثين وتفوت الفرصة على المنتهزين.

فعلى كل فرد واجب وفي المجال متسع ونكران الذات فريضة واحتمال الالم لذة وان يكون خير الا ان ضحيت في سبيله ولا نعيم الا ان شقيت من اجله.

وحسبك اجراً على جهادك رضى النفس وراحة الضمير واطمئنانك الى انك تعمل لوجه الله وتضحي في سبيل الوطن.

عبد العزيز احمد



الاستاذ عبد العزيز احمد



في ازمة الشعور

لابي الحكم الثقفي

•

(١)

تكاشرني كرهاً ، كأنك ناصح ! .   وعينك تبدي ، ان صدرك لي دوي .

لسانك لي أري ، وعينك علقم ،   وشرك مبسوط ، وخيرك ملتوي .

أراك ، اذا لم أهوَ امراً ، هويته   ولستَ لما أهوى من الامر ، بالهوي

• عدوك يخشى صولتي ، ان لقيته[1] .   وانت عدوي ! ليس هذا بمستوي

وكم موطن لولاي ، طحت كما هوى   بأجرامه من قلة النيق ، منهوي .

• اذا ما ابتنى المجد ، ابن عمك ، لم تُعن   وقلت : ألا . بل ليت بنيانه ، خوي

وانك – ان قيل ابن عمك غانم –   شج ، او عميد ، او اخو مغلة لوي

تملأت من غيظ عليه ، فلم يزل   بك الغيظ ، حتى كدت بالغيظ تنشوي

• وقال النطاسيون : انك مشعر   سُلالاً ، ألا . بل انت من حسد جوي

جمت ، وفحشاً ، غيبة ، ونميمة ،   خلالاً ثلاثاً ، لست عنها بمرعوي

فليت كفافاً – كان – خيرك كله ،   وشرك عني . ما ارتوى الماء مرتوي

الاستصلاح بالاخلاق

لمعن بن اوس

•

(٢)

وذي رحم ، قلّمت اظفار ضغنه   بحلمي عنه ، وهو ليس له حلم[2]

يحاول رغمي لا يحاول غيره :   وكالموت عندي ، ان يحل به الرغم

اذا سُمته وصل القرابة ، سامني   قطيعتها . تلك السفاهة والاثم

وان أدعه للنصف يأبَ ، ويعصني   ويدعُ لحكم جائر ، غيره الحكم

ويسعى اذا ابني ليهدم صالحي ،   وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم

يود لو اني معدم ذو خصاصة ،   واكره جهدي ، أن يخالطه العدم

ويعتد غنماً في الحوادث نكبتي ،   وما ان له فيها سناء ولا غنم

أكون له – ان ينكب الدهر – مدرهاً   أدافع عنه الخصم ، ان عضه الخصم . . .

• فان أعف عنه ، اغض عيناً على قذى   وليس له بالصفح عن ذنبه علم

وان انتصر منه ، اكن مثل رائش   سهام عدو ، يستهاض بها العظم

صبرت على ما كان بيني وبينه   وما يستوي حرب الاقارب والسلم

وبادرت منه النأي ، والمرء قادر   على سهمه ، ما دام في كفه السهم

• وما زلت في ليني له ، وتعطفي   عليه ، كما تحنو على الولد الام

وخفض له مني الجناح ، تألفاً   لتدنيه مني ، القرابة والرحم

وقولي – اذا اخشى عليه مصيبة –   ألا اسلم فداك الخال والعقد والعم

وصبري على اشياء منه ، تريبني   وكظمي على غيظي ، وقد ينفع الكظم

• لاستل منه الضغن ، حتى استللته .   وقد كان ذا حقد يضيق به الجرم

رأيت انثلالاً بيننا ، فرقعته   برفقي واحيائي ، وقد يرقع الثلم

وأبرأت غل الصدر منه توسعاً   بحلمي ، كما يشفى بالادوية الكلم

فأطفأت نار الحرب بيني وبينه ،   فأصبح بعد الحرب ، وهو لنا سلم . . .

---

(١) الرواية جاءت بضمير المتكلم ولا معنى لها الا كما اثبتناه اي بضمير المخاطب .

(٢) الترتيب المثبت ليس كما جاءت به الرواية فقدمنا واخرنا تبعاً للترتيب الطبيعي لمراحل شعور من هذا النوع .

(١) كانت ازمة حادة من الشعور بالعدوان ، تلك التي خالطت نفس صاحبنا الثقفي، واستبدت بكل مذاهب الحس عنده . حتى لقد مست اعصابه فايقظتها اشد ما تكون شدة، واعنف مـــا تكون ضراوة. ولقد وفق حقاً، حينما راح يفرغ جملها الانفعالية في جمل من التعبير البياني الناصع، اتت معها الصورة الادبية، جميلة الملامح الى كونها دقيقة، وانيقة الخطوط الى كونها صادقة . ففيها مشاعر بلغت في تهيجها الحي درجة التعقد، وفيها نبضات بلغت في انتفاضها المتدارك حد التفطر ، وفيها عاطفة بلغت في ارتفاع حرارتها شأو التلظي والتميز . ولنسر مع الشاعر رويداً رويداً ، لتتضح لنا الصورة الشعرية جملة ، والاخرى النفسية شيئاً فشيئاً . نرى -اول ما نراه - يكاشف بذات نفسه ابن عمه، في مجابهة دون تصنع ، ومعالنة دون تحفظ . فيخاطبه :

انك تتلقاني - في اكراه نفس وكبت مشاعر - بابتسامة عريضة مغتبطة، كما لو كنت لي المخلص الامين . وكيف احسبك اياه؟ وعينك التي فيها ارتسامات نفسك، تظهرني على ما في قلبك الدوي نحوي بامر داء . (واحسان الشاعر البياني يتجلى في التوطئة والتمهيد لكاف التشبيه بكلمة «كرهاً»، واختيار التعبير بكلمة «تكاشرني» دون ما في معناها) .

فانا اعلم، وان تكن على لسانك نداوة العسل وحلاوته ، ففي عينك وهي « باب الى القلب » مرارة الحنظل . ويتم الشاعر الصورة : بانبساط رقعة شره، وانكماش طبيعة خيره ، والمناكرة عليه في الهوى ابداً . (ودقة الشاعر البيانية تبدو في مجاوزته مقابل كلمة «منبسوط» الى كلمة «ملتوي» التي تضيف الى الانكماش معنى التشوه) .

ثم تبلغ حدة الشعور بالانفعال درجة النكاية، بالادلال المترفع . فعدو ابن عمه حين يلقاه، انما يتحاماه اصولته هو ، فكيف يستقيم بعد ذلك في الطبع المهذب ان يكون له عدواً ؟

وكأن الشاعر احس بانها دعوى، فاخذ بيد ابن عمـــه يلمسه ويلمسنا من ورائه، المواطن التي لولاه لطاحت به، وهوى فيها على ام رأسه كما يهوي الحمل الثقيل من قمة الجبل النيق، البالغ الارتفاع .

على انه يميل في أثارة من هذا الشعور الفائر، فيتهمه . وليس في انه لا يعين على ابتنائه مجده فقط، بل يتمنى لو حاقت به الدوائر وحفت به الغوائل، وعاد خواء بناؤه . وتمنيه السوء ليس سلبي الاثر عنده، بل هو ايجابي بعيد مدى الفعل . حتى ايترك في حلقه شجى وغصة، وفي كيانه حمياً ومرضاً، وفي ذات نفسه غلة وغصاً ثم يدعه كالشلو لوياً نهيك الحنايا والاحشاء . انه حشية غيظ، ولن تزال به ناره حتى ينشوي بها او يكتوي . ومرضه النفسي العاطفي الذي اذكى عنده فائرة الحمم، خيل للطبيب النطاسي الماهر انه مسلول متهري ء بالسلال ، وما داؤه الا الحسد وما جواه الا الحقد، وليس هو مرعوياً ابداً عما يحض عليه الحقد من خلال كريهة بغيضة . (والطرافة البيانية عند الشاعر في هذا الصنيع من تقديم المعطوف « وفحشاً » الذي يفيد في مثله الاستغراق والشمول، اي جمعت كل ما يتصور من اؤم النفس وقبح المعنى) .

هذه قصة اعصاب فائرة ثائرة، شاء الشاعر ان يبرزها، قطعة من حس، وخلجة من جسد . فأتت ولما يتدارك جذوتها ، حدب القلب الكبير بالتلطيف، وجمال حس الاخلاق بالاطفاء . فكانت قطعة انفعالية عضوية، كما عاشت على الاعصاب واختلجت فيها .

وجاء معن بن اوس ، فعبر عنها كيف تغدو ، وقد مسها جمال حس الاخلاق بمعناه . . .

(٢) في المقطع الاول يحدثنا : كيف كان حدباً على ابن عمه رغم عدوانه، ورغم ما يحمل عليه العدوان من ثورة نفس ورغبة ظامئة الى الانتصاف . وقد استأتى في المقطع الى نقل صورة عنـــه جد كريهة ومستفظعة، وهي رغم فظاعتها جميلة رائعة ، من حيث قوة الاخراج ودقة الابراز والتعبير . (واحسان الشاعر يبدو في اختيار التعبير بهذه الاضافة « ذي رحم » دون ما عداها ، لتزيد في معنى الاستنكار والتأفف . وفي اضافة الاظفار الى الضغن ، التي رسم بها طبيعة المعنى الاسود في النفس انكر رسم) .

وفي المقطع الثاني نحس انه انفعل وبشكل عنيف ، ولكنه استعرض انفعاله بين حالين : ان يعفو ، فيكون كمن اغمض عينه على القذى والدرن . او ينتصر ، فيكون كمن يبطش وبطشاً ساحقاً ليس ينبغي الا بعدو ، وفظيع استهداف ذي رحم به مهما جاء منه .

ولقد لجا في نفسه ، واصطرعا على ضميره طويلاً وملياً ، بيد انه لم يجد اخيراً ما يبرر حرب الاقارب ، فاعتصم بالصبر وهو القادر .

وفي المقطع الثالث يحدثنا : كيف لم يصبر فقط ، بل كيف ذهب يستصلحه بالاخلاق ايضاً، ويستأتيه بالاحسان على كل اشكاله .

وفي المقطع الرابع يرينا كيف حاوله بالاخلاق ، وكيف استلانت طبيعته بعد جمودها واستقامت بعد التوائها . . على انـــه يزيدنا فيسجل نجاح الاخلاق في معركة الطبيعتين، وليس على وجه السلب وهو اتقاء الشر، بل عـــلى وجه الايجاب وبشكل رفيع، وهو تحوير طبيعة السوء الى طبيعة خيرة، تحس بالجمال ، الجمال النبيل (وبراعة التعبير البيانية عند الشاعر تظهر في كلمة « احياني » التي ترسم كل عمل الاخلاق في تصحيح الطبائع الشاذة الملتوية ، وفي بعث الرفاة وانه ظن وخيل انها بائرة خائبة) .

« ابو عبادة »



الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة

لابن بسام القسم الرابع ، المجلد الاول – ٢٣٨ صفحة – منشورات كلية الاداب المصرية

المصادر التي تصلنا بتاريخ الاندلس، واطوار هـذا التاريخ وخفاياه، هي من القلة بمقدار، يجعل لاي اثر عنها – وان عادياً – قيمة وقيمة مغالى فيها . فكيف بالذخيرة .

وزاد بها قيمة ما قد هيىء لها من نشر علمي ، وعناية بالتصحيح والمقابلة يقتضيها مثل هذا النشر . ومن وقف على الاصل او على حكايته المنوه بها في مقدمة الناشرين ، يدرك مبلغ العنت والتصعب فيه، ومبلغ الجهد المبذول عليه ، حتى استقامت له هذه الحلة القشيبة التي نطالع بها اليوم .

وفي هذا الجهد وحده، والموفق ايضاً، ما يسجل مأثرة ومأثرة مرموقة للقائمين عليه . وكان حسناً لو وفروا له وفرغوا فيه الى امور ثلاثة :

١ – تحقيق الاعلام، أإن للمدن او للاشخاص ولاسيما الاجنبية منها ، مثل « شانجـه بن غرسية » و « وادفونش بن برمند » و « مننذس بن غند شلب » وتبدو الضرورة ماسة الى هذا التحقيق، حين نعلم ما عند كتاب العرب من ميل الى تكسير مثل هذه الاعلام، والخروج بها عن قاعدة نطقها الى ما يقرب من موازين نطقهم .

٢ – الفهارس التحليلية المفصلة، خصوصاً والكتاب على طريقة المغاربة التي يكثر فيها ما يسمى « بالانتقال والرجع » فالترجمة تشتمل على ترجمات وعلى احداث ليس موضوع الترجمة ابداً مظنتها

٣ – الزيادة في دقة التصحيح : فقد وقعت مآخذ بعضها نحوي : مثل (فللحدثان عنه زليل) ص٤ س٤ . اثبتت اللام في «فللحدثان» على انها جارة وهي لام الابتداء المؤكدة دون ريب . ومثل :

فارحم ابنين ابي بنات لم يصب لدموعهن على الخدود مسيل

ص ٤ س ٨، اثبتت « يصب » على انها من اصاب ، وانما هي من صاب يصوب اي جرى . وعليه يتسق المعنى ويستقيم، وذلك لان الفعل في قوة النكرة والنكرة في سياق النفي تعم عموماً شمولياً، كما هي القاعدة الاصولية . وعليه فالمعنى : لم يجر ابداً ولم يجر يوماً مسيل دمع على خدودهن ، كناية عن انهن نشأن في غبطة عيش لم تعرضهن الايام لما يجري دمعهن مسيلاً . والافعلى مقتضى ما هو مثبت في النسخة المطبوعة، لا يتفق المعنى الا على احتمال بعيد وهو انه من شدة الخطب الملم بهن اضحت دمعتهن جموداً، فلم يدرك على خدودهن اثر من مسيل الدمع .

وبعض منها لغوي : مثل (ومستوفز مرحاً) ص ٤ س ١٥ ، صحح بها الناشرون ما في الاصل وهو « ومستوفر »وليس صواباً . وذلك لان كلمة الاستيفاز اي النهوض غير المطمئن لا تتفق والمرح بحال، على ان اكثر ما تضاف اليه يكون في الشر كما هو محفوظ في استعمالات العرب . والاقرب للصواب، امـا « مستزفن » اي متراقص واما «مستوقر» اي مستوعب . ونحن اذا عرفنا ان عصر ابي العلاء صاعد عهد في الكتابات استعمال مادة « زفن » ومشتقاتها ووجوه تصريفها، نرجح في شيء من الاطمئنان الصيغة الاولى .

وبعض اخر من عدم استواء الملاحظة، فقد ورد في ص ٥ س٦ (الكنت كام ابي مزبد اذ بعث اليه يحيى بن خالد غلاماً، فقال لها يا امه، وهب لي يحيى « غ » ، قالت وما « غ » قال « لا » قالت وما « لا » قال « م » وطبق الميم على شفتيه الخ) ذكر الناشرون ان « م » لا توجد في الاصل والسياق يقتضيها ، وهذا الصنيع غير مستو . وذلك لان الميم في القصة ليست ملفوظة ، بل مشار اليها اشارة بحركة من اطباق الشفتين عليها . وصحة العبارة (قال وطبق الميم على شفتيه) كما ورد في الاصل، واضافة قال في مثله هـو المسموع . فقد ورد في الحديث الذي اخرجه البخاري في كتاب العلم حكاية عن موسى والخضر (فوجدا جداراً يريد ان ينقض، قال بيده فاقامه الخ) . الى اشباه لها، ينفرج حديثها ويتسع، وفي مثل هذه الاشارة غناء وكفاء .

وهذا المجلد بعد ذلك، يتناول فيه ابن بسام بعضاً ممن هاجر الى الاندلس (وطرأ عليها من شعراء الشام والعراق، ممن تبحبح في ذراها وتسربل نعماها) فاشتمل على تراجم ابي العلاء صاعد البغدادي وابي الفضل البغدادي وسليمان الصقـلي وابي الفتوح الجرجاني والسوسي وابن شرف القيرواني وابي الحسن الحصري الكفيف وابن فضال القيرواني . ومهما يكن فهو نفيسة من النفائس وضعت بفضل الناشرين عند متناول اليد ويسرت للطالبين بعد ان كانت حديثاً وحديثاً متكهناً

عبدالله العلايلي

معطيات الوجدان البديهية

لبرغسون – ترجمة كمال يوسف الحاج – ١٤٢ صفحة
منشورات كنوز الفكر الغربي – بيروت

كنت أرى دوماً ان الاقدام على ترجمة برجسون لا يخلو من مخاطرة ، وان اخراج فكره وأسلوبه ان يتأتى الا لمعرب انقادت له لغته العربية اولا ، وملك زمام كلمها ، وتمرس بفنها القولي واساليب التعبير فيها ، ووهب الى جانب هذا حساً لفظياً نامياً وتذوقاً للكلمات وجرسها ، واسلوبا حركيا سيالاً فيه رشاقة وحركة تسايران ما في اسلوب المؤلف من نعومة وشمر ، وتعطف وتثن .

كما كنت ارى ان القيام بأعباء مثل هذه الترجمة يفرض على المترجم ان يكون قد ألمّ بالتفكير الفلسفي ، وطالت عشرته للمؤلف حتى ربط اول كتاب له بآخره وأخفى الافكار بأبينها . فأسلوب برجسون بدع بين الاساليب ، فهو اسلوب تصويري غني تندس فيه اعمق الافكار في انعم التشبيهات والرموز ، بحيث يؤدي التفريط في اي جانب من جوانب ابداعه الى النزول به الى الحضيض . اذ الفكر والبديع يؤلفان لديه لحمة واحدة لا تنحل سداتها ، شأن كل اسلوب حي .

فاذا بنا نفاجأ في هذه الترجمة بأسلوب عربي لا يكاد يبين ، فيه الكثير من العجمة ، واذا بنا لا نستطيع ان نطالع فيه اية بقية من اسلوب برجسون وأي ذماء من روحه . بل اذا بنا لا نستطيع تبين معالم فكره فيها : فالترجمة تارة خاطئة تنقض فكرة المؤلف ، واخرى عائمة حائرة تخلع على الاصل حلة من الابهام يستعصي معها فهمه ، وثالثة عاجزة متلكئة تنهك القارىء دون ان يصل الى فهم مقصدها ، لولا ما تسعفه به ذكراه للاصل الفرنسي .

ومرد هذا الاخفاق الى عوامل عديدة . اهمها ضعف الاسلوب العربي وفقدان المرونة في تصريف فنونه ، ثم عدم الوصول الى فهم النص الفرنسي احياناً وارتكاب اخطاء تخرج بالاصل من مرماه ، ثم ضعف الروابط بين الجمل واساءة استعمال حروف الربط من عطف وتعجب واستدراك وغير تلك ، واخيراً الجهل بالمصطلحات الفلسفية العربية التي شاع استعمالها وكاد الاتفاق يتم بشأنها بين المؤلفين .

وأول ما يقبل القارىء على الفصل الاول يطالع في صفحتين فقط ، او تقلان قليلا ، ما في اسلوب المترجم من ضعف وعجمة . كأن يقرأ مثلا الجملة التالية : « ولكن خصوم علم النفس الطبيعي انفسهم لا يرون غضاضة في التكلم عن احساس ما انه يربو على غيره شدة او عن جهد من الجهود انه اشد من سواه » ، هذا عدا عما في استعمال كلمة « يربو » اللازمة من خطأ . او كأن يقرأ الجملة الاتية : « فيقال انا اشد حراً او أقله ، اكثر غماً او أخفه » ، ولعله يهتدي بعد عناء الى ان المترجم يأتي بهذه الجملة ، التي ليست من العربية في شيء ، ترجمة للعبارة الفرنسية «On dit qu'on a plus ou moins chaud, qu'on est plus ou moins triste».

او كأن يقرأ قوله : « ومشكلة أشد وعورة مما نتخايله عادة » يريد ان يقول « مما يخطر على بالنا » . ولا ادري اذا كنا نقع لهذا الفعل « تخايل » على اصل في العربية ، كما لا ادري اذا كنا نجد وجهاً لاستعماله بعد قليل « ينيف » عوضا عن « ينوف » ، او معنى لعبارته التالية : « واننا ندرك الاحساس الاشد شرط ان يجتاز عبر الشدائد الادنى من الاحساس عينه » حيث يرهقنا استعمال « عبر » و « الادنى » وضعف الجملة كلها . ومثل هذا نقوله في تعبيره الآتي : « دون ان نزلق في عثرة برهان الدور » حيث يريد ان يعبر عن قول برجسون « Sans Commettre un véritable cercle vicieuse» ، فانظر الى « نزلق » وابحث عن معناها هنا وانظر الى « عثرة » وابحث عن مكانها في الاصل الفرنسي .

وانظر بعد هذا الى قوله بعد قليل : « ولاننا نشعر بالكفاءة لتعليل كيفية تفوق عدد من الاعداد عدداً آخر » واحكم على ترجمة « On se sent capable » بقوله « نشعر بالكفاءة » ، ثم احكم على ثقل التركيب حيث تجد اربعة مضافات متتالية ، وعلى كلمة « تفوق » وخلوها من اي معنى هنا وعلى تعديها ، وهي المتعدية بحرف الجر ، لمفعول منصوب هو « عدداً » وقل مثل هذا في جمع « شدة » على « شدائد » . ثم انظر الى هذا المطلع المتلبس بالعجمة ، حيث يقول مبتدئا : « يكون تهرباً من الصعوبة ليس غير ، تمييزنا بين نوعين من الكلام . فتقديم هذه الجملة الخبرية « يكون تهرباً من الصعوبة » طريقة فرنسية في التعبير لا تسيغها العربية . وانظر الى قوله بعد هذا : « لاننا نقر هكذا بوجود رابطة مشتركة بين هذين الشكلين من المقدار ما دمنا نسميهما مقدارين ، ونعلنهما قابلي الزيادة والنقصان على السواء » ، حيث ترى ما في استعمال كلمة « نعلن » هنا من عجمة ، وحيث يتبين لك ان موضع كلمة « على السواء » يغير المعنى المقصود ، واذ كان من حق هذه الكلمة ان تسوي بين المقدارين لا بين الزيادة والنقصان فالمقداران هما اللذان نقول عنهما انهما ، على حد سواء ، قابلان للزيادة والنقصان بينما يظهر من النص العربي ان التسوية هي بين الزيادة والنقصان . كذلك يبدو لك ضعف اللغة

في قوله : « فاذا تمكن كم ما ان يزيد وينقص » ، فتمكن يتعدى بحرف الجر اولا ، وان كان ثمة وجه ضعيف لحذفه قبل ان ، كما ان استعمال هذه الكلمة في الحديث عن غير العاقل (كم) استعمال ملي، بالعجمة . ثم انظر بعد هذا الى الجملة الآتية : « ونحن لا نستعمل الكلمة ذاتها فحسب ، بل لننفعل ايضاً بالتأثير ذاته » ، سواء أكان تفكيرنا يدور حول تشدد اكبر او امتداد اوسع » وحاول ان تفهم المقصود من قوله « بل ننفعل ايضاً بالتأثير ذاته » دون ان تستحضر في ذهنك الاصل الفرنسي القائل « Nous éprouvons une impression analogue dans les deux cas »

ولاحظ بعد هذا وجوب تأخير هذه الجملة ان صحت ، الى ما بعد ، اذ المقصود القول بأننا سواء كنا نفكر في شدة كبرى او امتداد اوسع نشعر شعوراً واحداً في الحالين ، هـذا الى استعماله « او » بدلاً من « ام » رغم انه قرن « سواء » بهمزة الاستفهام » . ثم هو يورد بعد قليل التعبير التالي : « صورة انصرام حـالي » ترجمة لـ « L'image d'une contraction présente » ، وواضح ان لفظة « انصرام » لا تعني ابداً التقلص او التقبض وان معناها المضي والانقضاء . كما يورد بعد ذلك ايضاً الجملة التالية : « اذا جاز لنا التعبير هكذا بهذه الطريقة » حيث يبدو ضعف الاسلوب جلياً . ويورد ايضاً قوله : « يصعب علينـا حلها » يريد « malaisé à déterminer » ولعلها خطيئة مطبعية صحفت « حدها » فجعلتها « حلها » ، هذا اذا صح استعمال « حدها » ايضاً اذ الحد التعريف وهو غير التحديد . ومما يقوله ايضاً : « ان الحل الذي يتبادر حالا الى الذهن عندما نخوض غمار هذا البحث » ، وفي هذا خروج على النص الفرنسي القـائل « La solution qui se présente immédiatement à l'esprit une fois engagé dans cette voie, consisterait etc. » قاصداً بهذا « ان الفكر، اذا ما سلك هذه السبيل ، كان اول حل يتبادر اليه ... »

هذا بعض ما وجدته في الصفحتين الاولين فقط (١٥ ، ١٦) من الترجمة ، أضف اليه اموراً اخرى تتصل بتذوق الاساليب ومجراه العام ، مما يصعب التحدث عنه في مقال .

ولانتقل ان شئتم الى الفصل الثـاني ولاتصفح جزءاً منه ، مقتصراً على ابرز الاخطاء ، تاركاً كثيراً من الاخطاء الاخرى لضيق المقام ، منتقياً على الاخص تلك التي تظهر فيهـا مخالفة للاصل الفرنسي :

وأول ما نجد في الصفحة الاولى منه (ص ٥٤) قول المترجم :

« غير انه وحدة تشتمل على كثرة من الاجزاء التي يصعب علينا النظر اليها مفككة بعضها عن بعض » وفي هذا مخالفة صريحة للاصل، اذ الاصل يقول انها وحدة تشتمل على كثرة من الاجزاء يمكن (لا يصعب) النظر الى كل منهـا على انفراد « Qu'on peut considérer isolément » . ثم نقرأ بعد هـذا ترجمة لـ « Les deux notions de nombre et d'espace » بـ « لمحة مبدأي العدد والمكان » وظاهر ان كلمة notion لاتفيد كلمة « مبدأ » وان برجسون لا يتحدث هنا عن مبدأين ، وان لا معنى للتحدث عن مبدأ للعدد مثلا ، وان الواجب ترجمة هذه الكلمة كما هو معروف بكلمة «فكرة » او «معنى» . هذا الى ان استعمال كلمة « لمحة » هنا استعمال غير مصيب للهدف . ثم نرى المعرب بعد هذا يضع كلمة « ارقام » في مقابل كلمة « Termes » ويترجم « Les différences spécifiques de ces sensations » بقوله « الفروق الخاصة في هذه الاحساسات » ويورد العبارة التالية « غايزها بعضها عن بعض بغير مركزها او مركز اشارتها » يريد بـ « غايز » غير ، ويريد بـ « بعضها عن بعض » بعضهـا من بعض ، و يريد بـ « مركزها » وضعها leur position ويريد باشارتها رمزها leur symbole ، مما يجعل عبارته في غاية الغموض ! ثم يورد ايضاً كلمة « وقد استبهها » ترجمة للاصل الفرنسي « Ont été confondus » يريد ان يقول « وقد اختلطا » . كذلك يأتي في الصفحة الثانية من الفصل بكلمة « متشابهة » ترجمة لكلمة « identiques » مع انها لا تصح الا ترجمة لكلمة semblables ، كذلك يأتي بكلمة «قطاع» جمعاً لكلمة قطيع ، والصواب قطعان ، ويذكر كلمة « يلحق » ترجمة لكلمة « accompagner » يريد « يصاحب » ، وكلمة « الذهني » ترجمة لـ abstrait يريد « المجرد » . ثم يورد في الصفحة الثالثة العبارة التالية الخاطئة : « فالذي يستبهم علينا في هذه القضية عادتنا للعد في الزمان لا في المكان كما هو الظاهر » . وهي عنده ترجمـة للجملة الفرنسية «Ce qui fait illusion sur ce point, c'est l'habitude contractée de compter dans le temps, semble-t-il, plutôt que dans l'espace »

فالامر هنا ليس امر استبهام وانما هو امر تضليل وحجب للحقيقة عنا ، كما ان وضع «كما هو في الظاهر »في نهاية الجملة وضع خاطىء . ثم يورد بعدها جملة اخرى اعرق منها في الخطأ اذ يقول : « لاريب بأنه يصعب علينا تمثيل هنيهـات الزمان الخ .. » وهي ترجمة معكوسة للاصل الفرنسي القائل «Sans doute, il est possible de concevoir les moments du temps »

كذلك نقرأ في الصفحة الرابعة جملة خاطئة اخرى تخرج بالنص عن اصله وهي قوله : « من البديهي عندما نتمثل هذه الوحدات التي تؤلف العدد ألا نشك في انها وحـدات لا تتجزأ » وهي لديه ترجمة لـ
« Il est incontestable que lorsque nous nous figurons les unités Composantes du nombre, nous croyons penser à des indivisibles» فرق بين قوله « ألا نشك بانها وحدات لا تتجزأ » وبين قول برجسون « يخيل الينا ان تفكيرنا منصب على وحدات لا تتجزأ » . ثم يقول بعد هذا مباشرة : « وهو ظن يلعب دوره الخطير في تكوين اعتقادنا بكفاءة انفسنا على تمثيل العدد الخ . » يريد بكفاءة انفسنا ان يترجم qu'on pourrait كما يترجم بعد قليل كلمة Objectiver بـ « جمـد » ، ويترجم Il suffit pour s'en convaincre بقوله « و كفى بذلك » ، ويورد هذه العبارة الضعيفة الخاطئة « من الكميات التي تتكسر تصغيراً وتكثيراً قدر ما يحط بها خيالنا » يريد « des quantités fractionnaires, aussi petites et aussi nombreuses qu'on voudraient l'imaginer » كما يترجم كلمة multiple بـ « مكرر » وقوله : « Aucun effort d'analyse n'en fera sortir autre chose que l'unité pure ou simple » بـ « من العبث ان تستأصـل منها غير وحدة محضة بسيطة كيفما تحايلت عليها في تحليلك لمراياها » ، فواضح ما في هذه الترجمة من تشويه ، وواضح ما في استعمال كلمة « استئصال » هنا من مخالفة مطلقة المعنى . ومثل هذا نقوله في هذه العبارة الخاطئة التي يوردهـا في الصفحة التالية : « من واجبنا الا نخدع انفسنا بالتفكك الكائن في العدد ، مع ذلك لا ننكر البتة ان تكوين عدد من الاعداد يشتمل على التفكك » يريد ان يترجم « Il ne faudrait pas se faire illusion sur la discontinuité du nombre. On ne saurait contester etc. » فالمقصود هنا « ينبغي الا يتطرق الينا شك في ان العدد غير متصل ، وليس من ينكر الخ . » وظاهر ان الترجمة التي وردت في الكتاب تقلب النص رأساً على عقب ، لا سيا بوضعها للجملة الثانية كاستدراك من الجملة الاولى في قوله « مع ذلك » بينما هي مفسرة لها . كذلك نجد مثل هذا الخطأ في العبارة التالية : « ان الوحدة لا تتحول ولا تتكسر عندما نفكر بها ، ولا يكون العدد مفكك الاوصال حين نشيده » يريد ان يترجم « L'unité est irréductible pendant qu'on la pense, et le nombre est discontinu pendant qu'on le construit » فظاهر ان قوله « لا يكون العدد مفكك الاوصال » نقيض قول برجسون .

وقل مثل هذا في عبارته الاتية التي يوردها في الصفحة التالية : « يقصر العلم عن نقله لنا الى المكان » يريد «elle ne réussirait certes pas à nous l'y faire transporter» فالمنقول ليس نحن وانما هو العدد . وقل مثل هذا ايضاً في قوله بعد قليل : «وهي النتيجة التي وصلنا اليها سابقاً عندما زعمنا بأن كل جمع لا يقوم الا على كثرة » يريد بـ «زعمنا» « en nous fondant sur ce que. » فالمؤلف لا يقول عن نفسه انه قد زعم ثم رجع عن زعمه وانما هو يؤكد ما قال .

هذا قليل من كثير اوردناه على سبيل المثـال لا على سبيل الاستقصاء . وقد أهملنا مضطرين ملاحظات عديدة ، كما اقتصرنا على صفحات معدودات ، لضيق المقام . ومن اراد الوقوف عـلى اساوب المترجم في جملته فليقرأ مثلا الفقرة الوسطى من الصفحة «١٠٣» ليتبين له مبلغ اخفاق الترجمة .

على ان هذا كله لا يمنع ان المترجم قد بذل جهداً كبيراً في الترجمة ، واراد ان يقدم خدمة لمواطنيه . ومـا الاضطلاع بترجمة مثل هذا الكتاب بالامر السهل ، فلسنا ممن يجهل مـا فيه من مشقة . لذا لا يسعنـا الا ان نشكر المعرب عـلى محاولته ، راجين ان تكون هذه الترجمة فاتحة الترجمـات أتم وأكمل .

نحن ان اقدمنا على مثل هذا النقد ، فما ذلك الا ايماناً منا بأن الاخلاص لثقافتنا القومية يقتضي منا ذلك ، بـل قد نكون في هذا اكثر اخلاصاً للمترجم نفسه . ولعلنا في حاجة الى مثل هذا النقد الصريح في جميع مرافق حياتنا ، ولعل رسالتنـا القومية الصريحة تطلب منا صدقاً لا يعرف اللين ، فيقوم بعضنا اعوجاج بعض ، ويصدق بعضنا بعضاً القول .

القاهرة — عبدالله عبد الدائم

مركب النقص

تأليف ماكبرايد ترجمة نوري الحافظ – ٦٣ صفحة – بغداد

منشورات مجلة المعلم الجديد

لا شك في أن مجلة المعلم الجديد قامت بنشر هذه الترجمة قاصدة خدمة التربية قبل خدمة الطب النفسي وعلم النفس العام . أن تفصيل المؤلف القول في منشأ مركب النقص يبرز بوضوح خطر الاخطاء التي تتعرض اليها المجتمعات الخاضعة للصدفة في نموها وتربيتها ولا توجد رعاية علمية توجه الاطفال وتبعد آثار الايحاء والعادات السيئة والعدوة

الاجتماعية «مما لاجدال فيه أن العجز والاتكالية هما مفتاح الطفولة» وتأتي بعد ذلك الطرق العنيفة في التربية التي تكثر من الضغط والقسوة فتحدث ما سماه ماكدوكل : Neurotic Troubles وما ترجمه الاستاذ نوري الحافظ الاضطرابات العصابية وحاول المؤلف أن يجد أساسا يحصر به الصفات الثانوية والرئيسية لمركب النقص وهنا بدا شيء من التفكك في التأليف ولعل ذلك راجع الى رغبة مسرفة في التبسيط واقتصر المؤلف على ذكر الصفات الظاهرة في السلوك التي يمكن لكل شخص أن يلحظها ولم يحاول ربط الاعراض النفسية والاعراض الفسلجية « وقد قام المترجم بواجبه حق قيام وكان أمينا في التعبير عن آراء المؤلف رغم ضعف المصطلحات العربية التي حاول بحثها من جديد .

وكسب علم النفس العربي مقدمة العلامة الدكتور محمد فاضل الجمالي اذ استطاع في أسطر قليلة تلخيص مختلف التيارات العلمية في علم النفس — ولكن المصطلحات خاصة أغلبها يرجع الى الاستاذ الدكتور نفسه — ولعله جاء الوقت الذي يجب فيه على العرب ان يوحدوا فيه لغتهم وخصوصا لغة علم النفس

القاهرة ابومدين الشافعي

اقاصيص جديدة من الشرق

للاستاذ ريمون لوار — ٩٠ صفحة — باريس

من أب فرنسي وأم مسيحية عربية ، تحدر الاستاذ ريمون لوار . فلئن لهج لسانه بلغة ابيه وجرى قلمه فيها حتى اصبح فيها كاتبا نابه الاسم فما كان عاقاً للدم العربي الحار الذي يجري في اعراقه .

وها هوذا ، يصدر كتابه الجديد : اقاصيص جديدة من الشرق . نشرته دار كوريا في باريس . وانك لتجد فيه الخيال السامي يواكب الخيال اللاتيني . وتلحظ فيه البساطة تعانق الفن وتشعر أنك امام كاتب عاش في هذا الشرق العابق بالسحر والعطر . وبلا آلامه وأفراحه ، وتذوق احلامه واساطيره . انه يختلف عن كثير من الكتاب الفرنسيين الذين يمرون في الشرق ليستمدوا منه مواضيع هزيلة لقصصهم ، يقتنصونها من بائع التحف والنفائس . فهو يطرب معك في قصة « بيت الحقول » لصوت ندي يتسامى من المأذنة ، وهو يهتز لكلمة الله تتجاوب في حنايا «الجامع» الاحمر وهو يتشوف ، مثلك ، في قصته «دلال» لاستجلاء الجمال الشامي حين تخطر فتاة في عفرة صباها وقد ارخت برقعها الشفيف على وجهها وهو يجلس في قصة «الدرويش» : الى عامة الناس يسامرهم ويصغي اليهم وهو يحاور لك في قصة « القبضاي » صورة الفتى القبضاي المعتقد بقوته وشاربيه .

وانك ان تسمي هذه الاقاصيص صوراً أو مشاهد منتزعة من الواقع ولكنها تزخر بالحركة والحياة وتضوع بعطر الشرق ورنده وياسمينه

دمشق بديع حقي

التقدم الاقتصادي بعد الحرب

للاستاذ رسول المسكر — ١٠٠ صفحة — مطبعة النجاح بغداد .

درس دقيق افرغ فيه المؤلف جهداً كبيراً كريماً ، من ورائه بصر ممحص . وقد ذهب الاستاذ المؤلف يدير بحثه كله ، على اساس ان البناء الاقتصادي هو القطب الاولي لكل حركات الرحى البشرية المتشابكة ، ان سياسية او اجتماعية او انقلابية .. فدرس الحرب ومعارك الانتاج ثم انتهى الى ان معركة الانتاج هي ذا فورت ، ودرس نزعة الاقتصاد الحديث مثل تمهيد الى بحث الانتاج الوطني وتوسيعه على مقتضاه . وهكذا راح المؤلف يتنقل في جنبات البحث ، الذي وفر له كل ما ينبغي من احصاء ودقة ملاحظة . وانتهى من ورائه اخيراً بنتائج خيرة ، في موضوع لم تزل الحاجة الى الاكثار حوله ماسة .

القضايا الاجتماعية الكبرى

للاستاذ رسول المسكر — ٨٢ صفحة — مطبعة الرشيد بغداد

عرض سريع تغلب عليه نزعة المادية التاريخية ، ولكنه رغم كونه سريعا جاء مستوعبا . والمؤلف عني في المقدمة بتبيان « السعادة الاجتماعية التي يقتضي لوجودها توفر شروط ثلاثة (١) الوعي الثقافي وليد الثقافة العامة . (٢) الوعي بالمسؤولية الفردية تجاه المجتمع . (٣) الوعي الاجتماعي بالمسؤولية تجاه الفرد . ومن ثم انطلق يدرس الفرد والمسؤولية الاجتماعية فالحالة الاجتماعية وتطورها والمجتمع كيف يكون في قضاياه الكبرى فالتضامن الاجتماعي . والمؤلف في كل مذاهب بحثه ، راعى الصدق واصابة الغرض من اقرب وجوهه .

حرية العقل في مصر

للاستاذ سلامه موسى — ٣٢ صفحة — دار الفجر مصر

صفحات ، او صرخات يطلقها الاستاذ سلامه موسى ، موضحاً فيها مدى الضرر الذي تنزله ادارة المطبوعات المصرية بالشعب المصري في منع تطوره ، لانها لا تتيح للمصري الحر اخراج مجلة او جريدة الا بعد ان يؤدي غرامة مالية كبيرة .

وخلاصة هذه الصفحات انه يجب الغاء ادارة المطبوعات لتكون مصر امة عصرية .



طرح الاستاذ احمد شومان مراسل الاديب في مصر على الاساتذة عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني وتوفيق الحكيم هذا السؤال :

هل يوجد فروق بين آداب البلاد العربية ؟ ويرى القارىء في جولتنا هذا الشهر رأي الاستاذين العقاد والمازني ، اما رأي الاستاذ الحكيم فقد ضاع ولم يحمل الينا البريد الا رسمه الكريم ... ويلاحظ القراء اشارة اليه في حديث الاستاذ المازني .

رأي الاستاذ عباس محمود العقاد

آداب البلاد العربية

يوجد – ولا شك – اختلاف بين آداب الامم على حسب مواطنها ودرجات التعليم فيها ، كما يوجد اختلاف في آداب الامة الواحدة بين عصر وعصر او اقليم واقليم ، ولكن هذا الاختلاف شيء والقول بفصل هذه الامم بعضها عن بعض في الشؤون الادبية شيء آخر ، فادب مصر غير ادب الحجاز ، وهما غير ادب العراق او السودان او افريقيا الشمالية ولكنه كله ادب واحد يمكن ان يعرف باسم الادب العربي في البلاد العربية المختلفة .

اما اولئك الداعون الى الانفصال من سماسرة المستعمر فهؤلاء ليسوا بادباء ولا نعرف لهم ادبا يسر بلدا من البلاد العربية وفي مقدمتها لبنان ان ينسبه اليه ، ودعوتهم هذه شهادة عليهم بانهم قوم خاملون لا يستطيعون الظهور في افق الادب الا اذا حصروه وضيقوا نطاقه ولو امهلت هؤلاء قليلا لسمعت منهم من يقول : « ان ادب لبنان الشمالي غير ادب لبنان الجنوبي وان قصائد بكفيا وضهور الشوير غير قصائد زحله وهم على ضعفهم وخمولهم لا يعبرون عن شعور صادق حتى شعورهم الشخصي لانهم صنائع الاجنبي يقولون بالسنتهم ما لا يستطيع ان يقوله (الاجنبي) بلسانه ، ولو جرت سنة الادب على هذه الدعوة لما كان في لبنان ادب مستقل منذ وجدت النهضة الحديثة ، لان ادباء لبنان لم يعيشوا بادبهم في بقاع لبنان وحده ، بل كانوا يقرأون في مصر والعراق وحيث ما وجد القارؤون باللغة العربية .

ونحن نرى الآن ان الادباء الاميركيين على سعة بلادهم وامتلائها بعشرات الملايين من قرائهم لا يكتفون بحدود البلاد الاميركية ولا يسرهم ان تنقطع الصلة اللغوية بينهم وبين قراء الانكليزية في انحاء العالم بل نرى ان الامم تتصل من طريق الترجمة على اختلاف لغاتها ومصالحها وعناصرها ، فمن احمق الحمق ان يأتي اناس في قطر كلبنان فينشر الدعوة بعزله عن آداب الامم التي تقرأ العربية نفسها ، وعلى كل حال اعتقد ان هذه الدعوة قد اعيرت من الاهتمام فوق ما تستحقه ويستحقه اصحابها !!

والذين يلومون ادباء مصر ويعتقدون بانهم لا يعيرون الكتب اللبنانية اهتماماً هؤلاء قوم مخطئون ولا صحة لدعواهم هذه . فما من كتاب وصل الى مصر الا واعطته حقه من

الاستاذ عباس محمود العقاد

العنـاية ، وقد مضى زمن كانت مصر هي الميدان الوحيد لاقلام الادباء والشعراء من بلاد العربية جمعـاء واشتهر ادباء سوريون ولبنانيون بمـا كتبوه وطبعوه ووزعوه في الديار المصرية ، ولا نظـن ان شهرة جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه وايليا ابو ماضي قائمة على قراء المهجر وحده ولا على قراء البقاع اللبنانية وحدهـا ، وقد اشرت في جواب سؤال كهذا السؤال الى رعـاية مصر لادباء العرب حيث كانوا فقلت ان الجائزة الاولى في كتاب سلسلة اقرأ قد منحت لاديب فلسطيني بناء على اختيار القراء المصريـين ، فليست المسألة ان مصر لا تلتفت الى ادباء الامم الاخرى ، بل ان فريقاً من الادعيـاء لا يطيقون ان يذكر الادباء المصريون في غير بلادهم ، وهم لم يبلغوا هذه الشهرة بدسيسة اجنبية ولا بحيلة من الحيل المصطنعة ولكنهم بلغوهـا لانهم اهلها .. وسيظلون اهلا لهـا من غير حـاجة الى استئذان اولئك الادعياء ! !



الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

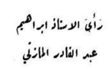
وشعراء من اقطـار عربية مختلفة، ولكننا لا نقول ان ابا تمام او المعري شامي او ان ابا نواس او بشارا او الجاحظ عراقي او بصري، وانما نقول انهم جميعا من أدباء العرب .

ومثل هذا يقال عن الادب الانكليزي ، فكارليل ، وبيرنز، وسكوت من ابنـاء سكوتلنده - أيقوسية ، ولكن كله ادب انكليزي ، وييتس الشاعر الحديث ارلندي ولكنه يدخل في الادب الانكليزي العام .

كانت النمسا قبل عهد هتلر منفصلة عن المانيا ، كانت دولة عظيمة قائمة بذاتها ولكنه ما من أحد في الدنيا يصف ادب ادبائها او فن فنانيها بانه ادب نمسوي او فـن نمسوي وهكذا الخ واضيف الى هذا ان الدنيا صغرت جدا بعد اختراع الطائرة واللاسلكي وهذا يفضي الى تقريب ما بين السمات المختلفة، وتكسب الاداب والفنون - كما اكتسبت العلوم - صبغة عالمية ، مهما بقي من السمات المحلية .

وقد كنا في مصر الى عهد قريب، والادب اللبناني هو السائد ولا يزال اثره باقيا في صحافتنا ، فان الصحف اللبنانية الاصل من أقوى الصحف المصرية وأقدمها وأرسخها قدما

رأي الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني



انا موافق على رأي صديقي الاستـاذ توفيق الحكيم فمـا ترك شيئا يقوله غيره ، وخلاصة ما ذهب اليـه في جواب السؤال انـه لا يصح ان يقال ادب لبناني وادب عراقي وادب مصري سوري او حجازي ، لان هذا تفريق ليس له اسـاس صحيح وان الذي وجه الناس الى هذا التفريق هو الاستعمار .

وازيد عليه ، من قبيل التمثيل ان في الادب العربي القديم كتابا

ولعل هناك دورة نهوض محلي ، فليس ثم مانع من ان يبرز الادب اللبناني ويشيع في الاقطار العربية ويكون له الغلبة والمرتبة الاولى ، ثم يتبعه بعد زمن ادب مصري ، فيظهر ويستولي على الميدان، ثم يلي ذلك عهد نهضة للادب السوري ولكنه كله - على كل حال - ادب عربي ومن الخطـأ جدا ان نفرق بينه ، وان نطلق عليه هذه الاوصاف المحلية ، فنقول هـذا لبناني وذاك عراقي، والثالث سوري او مصري - لانه كله عربي كمـا أسلفت . ولم يكن معروفا فيما مضى ، فماذا يغرينا به الآن ؟



١ شباط ١٩٤٦ – عين الفلد مارشال مونتغمري رئيساً لهيئة اركان حرب الامبراطورية البريطانية .

٢ – طالب الوفد الروسي في مجلس الامن سحب القوات البريطانية من اليونان سريعاً، فرد المستر بيفن وزير خارجية بريطانيا قائلاً ان الصعوبات القائمة في اليونان لا تدعو البتة الى الجلاء بل الى زيادة القوات البريطانية فيها .

نشرت اليوم مذكرة الحكومة المصرية الى بريطانيا ورد بريطانيا عليها بشأن تعديل معاهدة ١٩٣٦ والجلاء ووحدة وادي النيل ، وكان الجواب البريطاني ان مفاوضات ستبدأ قريباً بين الجانبين في كل هذه الامور .

٤ – زار عمان سمو الامير عبدالاله الوصي على عرش العراق لبحث امور هامة تتعلق بالعراق وشرقي الاردن .

٧ – انتهت قضية اليونان في مجلس الامن بعد ان تخلت روسيا عن تمسكها بان يقرر المجلس ان بقاء الجيوش البريطانية يهدد السلام في اليونان .

١١ – جرى في البيت الابيض بواشنطن حديث بين المستر تشرشل والرئيس ترومان حول مختلف الشؤون الدولية .

١٣ – وقعت اضطرابات في كلكوتا الهند ذهب فيها عشرات القتلى وعدد كبير من الجرحى .

١٥ – عقد مجلس الامن جلسته المخصصة لبحث قضية سوريا ولبنان ، فتكلم الاستاذ حميد فرنجية رئيس وفد لبنان عن طلب البلدين جلاء القوات الاجنبية عنها ، وكذلك تكلم الاستاذ فارس الخوري رئيس الوفد السوري في الموضوع نفسه . وبعد ان رد مندوب فرنسا وعلق بعض مندوبي الدول على هذا الموضوع اجل البحث الى جلسة تالية . استقالت الوزارة المصرية التي يرأسها دولة محمود فهمي النقراشي باشا .

١٦ – الف دولة اسماعيل صدقي باشا الوزارة المصرية الجديدة من الدستوريين والمستقلين .

١٧ – سوى مجلس الامن مشكلة سوريا ولبنان بأن اجاز اقتراح الولايات المتحدة المتضمن اعراب المجلس عن اعتقاده بسحب الجنود الاجانب من سوريا ولبنان في اقرب وقت ممكن وان تبدأ المفاوضات لهذا الغرض فوراً .

وبعد ان وافق المجلس بالاكثرية المطلوبة على هذا القرار قام رئيس الوفد الروسي وقال انه يستعمل حقه في « الفيتو » (اي حق النقض) وهكذا اصبح القرار ملغى . . .

ولكن الوفدين الفرنسي والبريطاني اعلنا انهما برغم موقف روسيا الصحيح من الوجهة القانونية فانهما يلزمان انفسهما بقرار المجلس، لذلك يستعدان لمباشرة المفاوضات للجلاء مع سوريا ولبنان .

١٩ – خسرت مصر اليوم رجلاً عظيماً هو رفعة احمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي عقب اصطدام سيارته بسيارة لوري بريطانية .

٢٠ – غادر عمان سمو الامير عبدالله يرافقه اعضاء الوفد الاردني في طريقه الى لندن لبحث قضية اعلان استقلال امارة شرقي الاردن .

٢١ – كان اليوم يوم اضراب عام في البلاد المصرية وقامت مظاهرات سلمية ثم تحولت الى صخب وعنف ، وسقط فيها ١٧ قتيلاً وجرحى كثيرون .

٢٢ – احتجت بريطانيا لدى الحكومة المصرية على عدم اتخاذ التدابير اللازمة للحيلولة دون وقوع الاضطرابات، التي وقعت اخيرا . وقد اجابت الحكومة المصرية ان هذه الاضطرابات اثارها سوء تصرف بعض رجال الجيش التابعين للجيش البريطاني .

الف السيد توفيق السويدي الوزارة العراقية بعد ان دامت الازمة اربعة وعشرين يوماً .



نشر رسم السيد شفيق عباس المراقب في مصلحة تلغراف (راديو الشرق) والذي ربح نصف الجائزة الكبرى في السحب الاخير لليانصيب الوطني اللبناني .

وقد كان النصف الاخر للجائزة من نصيب السيد توفيق حمدان وهو صاحب دكان صغير في محلة السور يبيع فيها دخاناً وطوابع وخرضوات متنوعة .

ومن طريف ما حدث ان الشخصين المذكورين عندما تقدما من صندوق اليانصيب الوطني لقبض جائزتيهما، التقيا في وقت واحد على مدخل الصندوق فوقف الاثنان مشدوهين ونظر الواحد الى الاخر نظرة مقرونة بالغصة والمرارة ، لان كلاً منها كان يتمنى في نفسه لو انفرد بشراء الورقة الرابحة كاملة ليربح كامل الجائزة الاولى لانصفها .

وما انقضت برهة على هذا الموقف الطريف حتى تجاذب الاثنان الايدي وتصافحا وتبادلا التحية . . . والتهاني . . . والتمنيات . . . وتعاهدا على . . . حفظ الشراكة في اليانصيب .

ومن يدري ؟ . . . فقد يكون حظها مشتركين اقوى منه منفردين !!! . . .